



الأمّنة كتابتة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

السنة الخامسة والثلاثون

رمضان ١٤٣٦ هـ

عدد: ١٦٩

بلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي

د. سعاد الناصر

سعاد عبد الله الناصر

- * من مواليد (المغرب).
- * تحمل درجة دكتوراة الدولة في الآداب.
- * تعمل أستاذة التعليم العالي بكلية الآداب بتطوان ، المغرب.
- * رئيسة تحرير جريدة «ملاح ثقافية» التي تصدر في تطوان.
- * شاركت في عدد من المؤتمرات والندوات المحلية والدولية.
- * صدر لها عدد من الكتب والداوين الشعرية والمجموعات القصصية، من ذلك:
 - نساء في دائرة العطاء، قصة المرأة في القرآن الكريم.
 - الدعاء سبيل حياة طيبة.
 - قضية المرأة.. رؤية تأصيلية.
 - بوح الأنوثة.
 - إيقاعات في قلب الزمن (مجموعة قصصية).
 - ظلال وارفة (مجموعة قصصية).
 - سأسميك سنبله (ديوان شعر).
 - هل أتاك حديث أندلس (ديوان شعر).



الأمّ كتاب

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص. ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. يتوافق إصداره مع شهر رمضان المبارك، شهر القرآن الذي يكاد يكون وعاءً لكل إنجازات الأمة الحضارية وعطائها الإنساني، ويشكل المحطات الكبرى في انطلاقها، لكن أعظم ما يمثل شهر رمضان بدء نزول القرآن، أعظم ما تمتلك الأمة المسلمة، ومحور انطلاقها.

يتمحور الكتاب حول إبراز معالم الفن القصصي، حيث إن القصة القرآنية هي إحدى وسائل القرآن وأساليبه في خطاب الإنسان، بكل ما تمتلك القصة من وسائل وأدوات التأثير الفنية والفكرية والبناء المقاصدي.. ولقد اجتهدت الباحثة في إبراز الجوانب الفنية والقيام بمقاربات ومقارنات متميزة، إلا أن هذا الجهد الملفت لا يجوز أن يعيَّب عنا الهدف الأساس من القصة وعبرها وهو صناعة إنسان الوحي، القرآن، وأن الخطاب القرآني بكل أجناسه يأخذ بأيدي الناس للتي هي أقوم.

وتأتي أهمية القصص القرآني، الذي شغل مساحات تعبيرية وفنية كبيرة، في أنها تمثل رحلة البشرية وما لحقها من علل، وتاريخ النبوة وكيفية تعاطيها مع الحياة، في كل الظروف والأحوال، وتقدم نماذج للاقتداء في المجالات الحياتية المختلفة، وتمنح دليل العمل.

فقصص الأنبياء، انتهت جميعها لتسجل ضمن السجل القرآني بحيث تشكل رصيد التجربة النبوية التاريخية لأمة الرسالة الخاتمة؛ لتبصر البيئات، التي أرسل بها الأنبياء وأنواع الإشكالات والاستجابات، التي واجهتها النبوة.

والأهم في الموضوع التحقق بالعبارة.. وتحقق العبرة في الحقيقة والواقع هو امتلاك الأهلية والخبرة والإمكانية لكيفية العبور الآمن لصناعة المستقبل، الذي يأخذ بالاعتبار ثغرات وإصابات الماضي فيتجنبها.. ويبقى التاريخ هو المخترع الحقيقي لمسالك الأمم، ولاكتشاف السنن الاجتماعية الفاعلة في الحياة والأحياء، ولبصارة الطريق، والاطمئنان إلى سلامة الاختيار.

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

بلاغة القص في القرآن الكريم
وآفاق التلقي

د. سعاد الناصر

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٣٦ هـ

حزيران (يونيو) - تموز (يوليو) ٢٠١٥ م

سعاد الناصر.

بلاغة القص في القرآن الكريم.. وآفاق التلقي.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٥ م.

١٤٨ ص، ٢٠ سم - (كتاب الأمة، ١٦٩)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٥ / ٢٠١٥

الرقم الدولي (ردمك): ١ - ٩ - ١٢٠ - ٩٩٢٧ - ٩٧٨

أ. العنوان ب. السلسلة

حقوق الطبع محفوظة

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بدولة قطر

موقعنا على الإنترنت: www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول تعالى:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ١ ﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ... ﴿ ٢ ﴾

(يوسف: ٢-٣)

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

الأممكتبة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

إعادة تشكيل العقل المسلم
في ضوء معرفة الوحي
إحياء مفهوم فروض الكفاية
وأهمية التخصص
المساهمة في بناء النخبة
الراشدة
إشاعة الوعي بأهمية
المنهج السنني

كتاب
الأمة

مشكلات

فكرية
الحياة الإسلامية

كتاب
الأمة

الصلوة الإسلامية

بين
أهداف التطرف

كتاب
الأمة

نظرات

مسيرة
العقل
الإسلامي

الأممكتبة
سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر
العدد ٦٥ - جمادى الأولى ١٤١٩ هـ - السنة الخامسة عشر

الاجتهاد المقاصدي
حجتيه .. ضوابطه .. مجالاته

الجزء الأول

الأممكتبة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر
العدد ٦٨ - رجب ١٤٢٦ هـ - السنة الخامسة والثلاثون

ظاهرة التطرف والعنف

من مواجهة الأثر إلى معالجة الأسباب

الجزء الثاني

نخبة من الباحثين

ثلث قرن من العطاء

قطر - الدوحة - ص.ب: ٨٩٣ - هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠ (٩٧٤) فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢
www.sheikhali-waqfiah.org.qa E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي جعل وراثتنا الحضارية القرآن (الكتاب)، بكل فضاءاته وآفاقه وأبعاده وعمقه التاريخي ومنهجه في التعامل مع الحياة والأحياء وإجاباته عن التساؤلات الكبرى، التي كانت ولا تزال تؤرق الإنسان، بسبب الحيدة عن قيم الفطرة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ﴾ (فاطر: ٣٢)، وجعله مصدقاً لما سبقه من الكتب، ومستصحياً مضامينها وقصص أنبيائها وسرهم وتجاربهم مع الحياة، ومصوباً للرؤى الدينية والحضارية السابقة، ومهيماً عليها، رقيباً مبيناً مواطن التحريف والتبديل، كاشفاً لرحلة العبث الإنساني بنصوص الكتاب الإلهي، الأمر الذي أدى تاريخياً للانحراف بالتدين والممارسة عن قيم الدين وأصوله في الكتاب، يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨).

وبذلك، يصبح التمسك بالكتاب والتزام قيمه هو أعلى أنواع الإحسان، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ

الْمُضْلِحِينَ ﴿ (الأعراف: ١٧٠)، ويصبح الالتزام بالقرآن والدعوة إلى قيمه بالتي هي أحسن وبيان مقاصده يمثل قيمة الجهاد الكبير في أنشطة الإنسان المسلم: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢).

ولهذا الجهاد الكبير وهذه المجاهدة الدائبة بمجالات وأبعاد دعوية وثقافية ولغوية وحضارية وأدبية وفنية وتشريعية وتربوية واجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية.... إلخ.

وحسبنا أن نعلم أن الكتاب (القرآن)، في تاريخ النبوة والثقافة والحضارة الإنسانية، هو معجزة الرسالة الخاتمة، جماع النبوة، وهو محل التحدي والترقي، فاستيعاب المعجزة والاستجابة للتحدي وتلمس جوانب بياحها ومحاولة محاكاتها، على مختلف الأصعدة، كان ولا يزال المحور والمحرك الثقافي ومصدر النشاط الذهني والعقلي والإبداعي للإنسان، سواء في ذلك المؤمن به، الذي يقرأ ويتدبر ويرتقي، أو الجاحد له، الكافر به، مدافعة ومكايدة، حيث الكتاب هو بؤرة الاهتمام ومركز الانطلاق.

ويمكن القول: إن معجزات الأنبياء، التي رافقت الطفولة والتميز البشري مادية، جاءت ضمن إطار «عالم الأشياء» المشهوددة، وإن معجزة الرشد الإنساني الخالدة عقلية، جاءت في إطار «عالم الأفكار» المجردة.

والصلاة والسلام على النبي الأتمودج للإنسان القرآني، المثل الكامل للتأسي والاقتداء، ودليل العمل والتعامل مع مجالات الحياة جميعها، الذي اجتمعت له كمالات الأنبياء، وانتهت إليه رسالاتهم وسيرهم وتجاربهم مع

أقوامهم، لتكون تلك القصص والتجارب، له ولأمته، عبرة تمكنهم من العبور للمستقبل بأمن وسلام، وتبصرهم ببناء الإنسان والحياة بعيداً عن الإصابات، التي لحقت بالأمم السابقة، حيث اختزلت النبوة الخاتمة خصائص وصفات الأنبياء في شخصه، عليه الصلاة والسلام، والرسالات السابقة في رسالته، فحاء رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، لذلك فالؤمن به مؤمنٌ بكل الأنبياء، الذين ابتعثوا لاستنقاذ الإنسانية: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۗ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

فالقُرآن سجل تاريخي لحضارة النبوة، وقصص النبوة دليل لإعادة بناء حضارتها وتحقيق أمنها وانسجامها، والخيولة دون الصراع والتسلط والهيمنة والاستكبار.

وبعد:

فهذا «كتاب الأمة» التاسع والستون بعد المائة: «بلاغة القصص في القرآن الكريم .. وآفاق التلقي»، للدكتورة سعاد الناصر، في سلسلة «كتاب الأمة»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، في اجتهادها الدائب للعودة بالأمة إلى الكتاب (القرآن)، ومعايرة وتقويم واقعها بقيمه، والبحث عن ذاتها والإجابة عن إشكالياتها الكبرى فيه، وإعادة الكتاب إليها ليكون مصدر حياتها ومناط سلوكها ومحل مرجعيتها والمهيمن الأساس على ثقافتها ودليل عملها وتعاملها،

والخلوص من حالة الحجر والقطيعة، التي حذر منها إمام البيان، عليه الصلاة والسلام، وحكاها القرآن، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٣٠)، وتصويب الالتباس الحاصل لمفهوم الحجر، وتبين أبعاده.

لذلك فقد يكون من الأهمية بمكان العمل على دفع التوهم أن معالجة حالة القطيعة والحجر إنما تكون بمزيد من التلاوة والحفظ وكثرة ختم القرآن وزيادة عدد المراكز والخلوى والكتاتيب ومؤسسات التحفيظ والقراءة فقط، على ما في ذلك من خير وعطاء، على مستوى سكية النفس واطمئنان القلب وانسراح الصدر وبناء الملكة اللغوية واستقامة اللسان وتخصيب الخيال وتذوق الجمال، لكن ذلك يشكل بعض المقصود، أو بعض المطلوب، الذي يتطلب بعداً آخر يحقق المطلوب من تعلم القرآن وتعليمه، الذي يمنح الخيرية للأمة: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (أخرجه البخاري)، حيث لا تتحقق تلك الخيرية - والله أعلم - إلا بالمدارس «وَكَانَ يَلْقَاهُ (أي جبريل) فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ» (أخرجه البخاري)، والتدبر، الذي يقود إلى الفقه والفرقان وحسن تدبير الأمور وإبصار الحلول للمشكلات الحياتية: ﴿ لِيَذَّبَرُوا سَبِيحًا ﴾ (ص: ٢٩)، والارتقاء في مدارج الكمال: «أَقْرَأُ وَارْتَقَى» (أخرجه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

ولعل حديث الرسول ﷺ لابن أم لبيد ؓ، يشكل التشخيص الدقيق والرؤية المبكرة المعصومة لحال الأمة، التي صارت وتصير إليها، لعلها تحذر،

وذلك عند «ذَهَابِ الْعِلْمِ» ولو بقي الحفظ، عندما يذهب التدبر والتعلم والمدارسة وتبقى القراءة والاستظهار والتلاوة، فعن زِيَادِ بْنِ لَيْبِدٍ رضي الله عنه قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم شَيْئًا فَقَالَ: «وَذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «تَكَلِّتَكَ أُمَّكَ يَا ابْنَ أُمَّ لَيْبِدِ، إِنْ كُنْتُ لِأَرَاكَ مِنْ أَفْقِهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوْ لَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيهِمَا بِشَيْءٍ؟» (أخرجه أحمد).

وقد يكون من الأهمية بمكان أن نفتح بعض النوافذ على فهم جيل خير القرون، جيل الأتباع، وكيفية تعاملهم مع القرآن، ذلك الفهم والتعامل، الذي جعل منهم الرواد وخير القرون، وجعل القرآن مصدر ارتقائهم وعطائهم وفقههم وفرقانهم، الذين كانوا به خير أمة أخرجت للناس، وتأهلوا به ليكونوا أمة وسطاً تمتلك المنهاج والمعيار للشهادة على الناس، وإبلاغهم الحق، وقيادتهم إلى الخير، فعن عُثْمَانَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي، رضي الله عنهم «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يُقْرِئُهُمُ الْعَشْرَ فَلَا يُجَاوِزُونَهَا إِلَى عَشْرِ أُخْرَى حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ» فتعلموا العلم والعمل جميعاً (سنن أبي داود).

وعن ابنِ عُمَرَ، رضي الله عنهما، قَالَ: «كَانَ الْفَاضِلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا السُّورَةَ أَوْ نَحْوَهَا، وَرَزَقُوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ؛ وَإِنْ أَحْرَجَ هَذِهِ الْأُمَّةُ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، مِنْهُمْ الصَّيِّئُ وَالْأَعْمَى، وَلَا يُرْزَقُونَ الْعَمَلَ بِهِ» (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن).

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إِنَّا صَعَبُ عَلَيْنَا حِفْظُ
الْقُرْآنِ، وَسَهْلٌ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِهِ، وَإِنَّ مَنْ بَعْدَنَا يَسْهَلُ عَلَيْهِمْ حِفْظُ
الْقُرْآنِ، وَيَصْعَبُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ بِهِ» (القرطبي، الجامع).

والحقيقة، التي لا مرية فيها، أن جيل خير القرون القدوة، جيل المعرفة
القرآنية والتربية النبوية، كانوا يعملون بالقرآن ولا يقولون، وأعقبهم أجيال
يعملون بالقرآن ويقولون فيه، ثم أعقبهم أجيال يقولون في القرآن ولا يعملون
بهدية، وهناك بعض لا يقولون ولا يعملون فتعطل العقل والنقل معاً، وبذلك
انتقلت إلينا علل الأميين من الأمم السابقة، الذين لا يعلمون الكتاب
إلا أماني، يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَتْلُمُونَ أَلْكِتَابَ إِلَّا
أَمَانِي﴾ (البقرة: ۷۸)، أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً، قال
ابن تيمية، رحمه الله، عن ابن عباس وقتادة، رضي الله عنهم، في قوله تعالى:
﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾: أي غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً وقرآنة
بلا فهم، لا يعلمون فقه الكتاب.

ولقد توهم الكثير منا أن إنهاء القطيعة ومعالجة حالة الهجر إنما يكون
- كما أسلفنا - بكثرة التلاوة واستظهار القرآن وتحويله إلى لون من الاحتراف
وارتياد مجالس العزاء ومدافن الموتى، أو الاقتصار على رقية المرضى، أو جزءاً من
برامج افتتاح الاحتفالات الرسمية؛ أما في المؤسسات التعليمية، فمعظم الدراسات
القرآنية غالباً ما تدور فيما بحثه الأقدمون حول علوم القرآن، بشكل عام،
والجدل حول ما يدخل من الدراسات ضمنها أو ما يخرج عنها، والفرق بين

التفسير والتأويل، والمجدل حول علاقة القرآن والسنة، فهل السنّة مبيّنة للقرآن وحاكمة عليه، أو أن القرآن هو الحاكم على السنّة والمهيمن عليها؟
وتلك الدراسات غالباً ما تدور ضمن عقول وإنتاج السابقين، من تحقيقي ونشر واختصار وشرح وتعليق، دون محاولة التفكير بتجاوز ذلك إلى أفق أو ملمح جديد، أو النظر من زاوية إضافية، وامتلاك القدرة على تعدية رؤية السابقين إلى مجرد مثل جديد.

لذلك يلف معظم الدراسات الركود والتقليد والتكرار، والتخطيء والتصويب، وبالإمكان القول: إن المحاضرات والكتب، التي كانت مقررة قبل قرون ما تزال هي هي، دون إضافة أو تجديد أو نظر أو اجتهاد، اللهم إلا في الطباعة، رغم تغير الظروف والأحوال والمعطيات الثقافية والمعرفية والمشكلات وأسئلة الحياة، التي تتطلب من الوحي الخالد الإجابة عنها والتي تتمثل بكيف نقرأ القرآن ونتدارسه من خلال الواقع، الذي نعيشه، وكيف نبصر الخلل الواقع في حياتنا ونعالجه من خلال تقويمه بقرآن؟

أما الأنشطة القرآنية، ومعها الكثير من المؤلفات القرآنية، التي تشكلت صدى لها، فلا تخرج في معظمها عن ثقافة المناخ السائد والذهنية القائمة في كيفية التعامل مع القرآن.. وقد تكون إشكالية التخلف الكبرى في الإعلان عن عناوين كبيرة، والاقترار على المضامين البسيطة، التي مضى عليها عهد طويل ولم تحرك ساكناً، ولم تغير حالاً، ولم تقلق القائمين عليها لإعادة النظر في أدائها.

وهذه الحالة من الركود والجمود على الحال، والانكفاء على الذات، والاتكاء على عطاء الماضي فقط، والعيش ضمن دائرة غربة الزمان وما تنتجه من العطالة، وتغييب ملكة النظر والتدبر، الذي يقود إلى التدبير للواقع، والاعتبار والتأمل، الذي يقود إلى العبور للمستقبل الآمن، والحذر من الإصابات، التي لحقت بالأمم السابقة، والاهتداء بمهذبة القرآن، والاستدلال بدليله لمنعرجات الحياة، والتعاطي معها؛ هذه الحالة، التي عليها القرآن من الهجر والقطيعة اليوم، رغم وجود كتابين وخلأوى وكليات وجامعات وأساتذة متخصصون، دفعت بالكثير من خارج الساحة والتخصص الشرعي لوضع رؤى ونظرات واجتهادات ومؤلفات ومجازفات ومحاولات للتعامل مع القرآن، الوحي الإلهي، كنص تراثي خاضع لكل مقاييس النظر والفحص والاختبار والاستنتاج، التي يخضع لها إنتاج البشر، ومحل لإعمال جميع المناهج الاجتماعية والنفسية واللسانية، والخروج بنتائج ومجازفات خطيرة، أما دورنا حيالها فلم يتجاوز، في الأعم الغالب، الموقف الدفاعي، أو التشنيع على الآخرين، وشيئتهم، دون إيجاد البدائل والمناهج والنتائج الموضوعية المنقعة المستوحاة والمتولدة من الذات، من القرآن.

وكلنا يعتقد أن القرآن كتاب خالد، وأبسط معاني الخلود القدرة على الإنتاج وتقديم الحلول للمشكلات، في كل زمان ومكان، والإجابة عن أسئلة الإنسان في كل زمان، لذلك فالإقتصار على الإجابات السابقة يعني - فيما يعني - محاصرة الخلود، ويبقي الخلود دعوى بلا دليل، وتصبح الخطورة

أشد عندما يُحاصر خلود القرآن من أصحاب التخصصات القرآنية والتي لا تبلغ المدى المطلوب لها.

والحقيقة، التي لا مرية فيها أن النقلة الحضارية أو الوثبة الحضارية ومعالجة حالة التخلف والركود الحضاري تكاد تصبح مستحيلة إذا بقيت مؤسساتنا الثقافية والأكاديمية على ما هي عليه، وبقيت منهاجنا على ما هي عليه، وبقي تعليمنا على ما هو عليه، فكيف يمكن أن يتغير الواقع إذا لم تتغير أدواته ووسائله وأنماط تفكيره؟ فإذا استمر تعاملنا مع القرآن ومعطيات الوحي، بشكل عام، على ما هي عليه فسيبقى حالنا مستمر على ما هو عليه!

إن التحول من إبحار الأهداف والمقاصد إلى التمحور حول الوسائل والأدوات وتقديسها والجمود عليها، رغم تغير الظروف والأحوال والمعارف والإشكاليات، سوف ينتهي بنا إلى المراوحة في المكان الواحد، حتى ولو توهمنا أننا نقطع المسافات، لكننا في الحقيقة نقطع نعالنا!

إنما مرحلة «ذَهَابِ الْعِلْمِ» الذي أخبر عنها الصادق المصدوق مبكراً لابن أم لييد عليه السلام لتأخذ الأمة حذرهما فلا تسقط في حقيقة «ذَهَابِ الْعِلْمِ» دون أن تدري، وتستغني بالشكليات والوسائل، التي تعطل عطاءها، دون أن تدرك الخلل فتصلحه، وإنما تستكبر وتستكثر وتكرس العطالة، وتفتح مزيداً من المؤسسات على نفس المنوال دون أن تقوّم وسائلها وأداءها وتكتشف مواطن الخلل وضلال السعي... لذلك فسوف يستمر الوهم بأنها تحسن بذلك صنعاً.

والأشد خطراً في ذلك أن نسمي نقل تلك الوسائل من جيل إلى جيل علماً، والحقيقة أنها تمثل «ذهاباً للعلم»، فأين التغيير؛ ومن أين يأتي؟ وما هي أهدافه؟ وكيف نبدأ به ونتوفر عليه ونستدركه من أهل التخصص، أهل الحل والعقد - ولكل قضية أهل حلها وعقدها- ونتوقف عن السقوط في محذور قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِ﴾ (يونس: ٣٩)؟

فإلى متى يستمر الادعاء، والغش الثقاني، والوهم الأكاديمي، والدوران في الحلقات المفرغة، وطحن الماء، والنتائج ما تزال توبخ القائمين على أمرها، الأمر الذي يلخصه قول الرسول ﷺ: «وَذَاكَ عِنْدَ أَوَانٍ ذَهَابِ الْعِلْمِ»، واستهجان ابن أم لبيد ذلك، ومؤسسات التعليم والقراءة قائمة؟

فنحن ما نزال نقرأ القرآن، ونقرئه لأبنائنا دون أن نسأل عن محصلة القراءة، وكيفية القراءة، وطريقة القراءة، وعطاء القراءة في النفس والمجتمع، ولماذا لم تحقق الارتقاء، الذي يشكل غاية القراءة: «أَقْرَأُ وَارْتَقَى» في الفكر والفعل؟ أما ما نراه من محاولات بعض الفهوم المعوجة من إسقاط أحكام القرآن على الواقع دون فقه بالقرآن وفهم للواقع، وفقه بالاستطاعة، وتوفير شروط التكليف، فإنما يعني المزيد من الارتكاس وإسقاط آيات القرآن وأحكام الشرع على غير محالها، ودون أن توفر لها الشروط المطلوبة، حتى لقد تحولت القراءة من حل إلى مشكلة، وأصبح الجهل والأمية أسلم من المعرفة بالأبجدية فقط وذهاب العلم، والتعسف في الفهم، والتطلع إلى العناوين الكبيرة، حتى ولو كانت المضامين متواضعة جداً.

فهل وقعنا في علل الأمم السابقة، الذي حذرنا القرآن من السقوط فيها بقوله تعالى: ﴿وَمَتَّهِمْ أَمْتُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ (البقرة: ٧٨)، (يقرأونه دون أن يعلموا ما فيه) مجرد قراءة!؟

ويبقى السؤال الكبير المطروح في كل حين وأن: كيف نقرأ القرآن؟ وهل المكسب فقط أن نتلو ونحفظ فقط دون أن نتحقق برسالة القراءة وعطائها؟ كيف نتعلم القرآن ونعلمه حتى نتحقق لنا الخيرية: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (أخرجه البخاري)، ونحقق التزكية والحكمة، ونسترد أبعاد البعث النبوي وآفاقه الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِمَّنْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢)؟

وكيف نتحقق بالقراءة القاصدة المتدبرة، التي تتوقف معها حياة الضياع ورحلة التيه والضلال، ومتى تكون قراءة القرآن وسماعه سبيل العروج والهداية والرشد واكتمال العقل: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن: ١-٢)؟

كيف نتعامل مع القرآن؟ وهي تكفي الأدوات والوسائل والمناهج الحالية والتبسيب على المؤسسات القائمة، وهل تحقق الغرض المقصود، وواقع الحال والفهم، الذي عليه الطلبة والخرابيون والدارسون والمدرسون شاهد إدانة لا يدع استزادة لمستزيد؟

وهل تحولت الوسائل إلى أشياء مقدسة غير قابلة للنظر والتطور
والاجتهاد حتى ولو توقفت عن العطاء؟ هل أصبحت غايات بحد ذاتها وسيلاً
للارتزاق فقط؟

وهل حدود فهم القرآن الكريم وقفَ على زمنٍ معين دون سائر الأزمان،
وإلى أي مدى يشكل هذا الاعتقاد حجراً على فضل الله وعطائه لكل الناس
وكل الأزمان؟

وكيف يتفق ذلك مع اعتقاد خلود القرآن وتجرده عن حدود الزمان
والمكان وفهم الإنسان، وقدرته على الإنتاج في كل زمان ومكان، والاعتقاد
بأن القرآن مائدة مفتوحة وفضاء مفتوح على الزمن، حتى يرث الله الأرض ومن
عليها، وأن معارف كل عصر معاونٌ لمزيد من النظر والاكتشاف والتدبر
ومحاكاة الإعجاز، حيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن لكل
زمان مشكلاته وأسئلته واستنطاقه لكتاب الله الخالد؟

كيف نجد أنفسنا في القرآن، ونهتدي إلى معالجة مشكلاتنا وإصلاح
حالاتنا، ونجد الإجابة عن أسئلتنا والمخارج لمعاناتنا والمقاصد لوجهاتنا؟ كيف
نسترد البوصلة القرآنية لتوجيه حياتنا؟

ومهما تنوعت دراساتنا حول القرآن وتشعبت اهتماماتنا وذهبت
تخصصاتنا يبقى محور القرآن الأساس: صناعة الإنسان؛ تربية الإنسان؛ الارتقاء
بخصائص الإنسان؛ تنمية الإنسان؛ استنقاذ الإنسان وإلحاق الرحمة به؛ تحقيق
خلاص الإنسان؛ وبكلمة مجملة: الهداية للتي هي أقوم.

ولعل البلاغة القرآنية والإعجاز البياني في استخدام كل الوسائل والأساليب الفاعلة والمؤثرة والمتنوعة في بناء الإنسان وصناعته..... فالمثل، والقصة، والتاريخ، والحوار، والجدال، والبرهان، والعرفان، والبيان، بكل أنواعه، والمقاربة، والمقارنة، والاستقراء، والاستنتاج، والاعتبار، والسير في الأرض، والدعوة إلى النظر والتفكير في الكون، واستكناه النواميس العاملة فيه، واستقراء السنن والقوانين الاجتماعية الفاعلة في الاجتماع البشري، وقوانين العمران، وسنن النهوض والسقوط، والترغيب والترهيب، وصنوف القول وأساليب الإعجاز... كلها في نهاية المطاف ما هي إلا أدوات ووسائل لصناعة الإنسان، وتربية الإنسان، وهدايته للتي هي أقوم، وحمايته من المخاطر والانحرافات، وتوجيهه الوجهة السليمة.

فالقرآن خطاب الإنسان، لذلك استخدم كل الوسائل، التي تناسب مع مكوناته وتطلعاته وأشواقه وفطرته وغريزته، وبكلمة مختصرة: «جِبِلَّتُهُ»، وتساهم بتنشئته، أو بإعادة تشكيله.

ولعل جملة الدراسات والاهتمامات المتعددة، التي نشأت حول هذه الوسائل: القصة، والمثل... وتلمس سائر وجوه الإعجاز والسنن..... إلخ، وأساليب القرآن، إنما تمحورت حول الوسائل والأدوات المتعددة، ولكنها حتى ولو تفردت بالدرس والبحث يبقى ذلك في إطار الوسائل، التي لا بد أن تستصحب في نهاية المطاف البعد الأساس، والمهدف الأساس، وتعاير وتقوم بمدى بلوغها وأدائها ذلك، وعدم التوقف عند مكوناتها وبلاغتها وفيتها.

ولعلنا نقول: إن معظم الدراسات والكتابات، التي تمحورت حول القرآن وعلومه وإعجازه وحفظه ونقله وقراءته وأساليبه وأغراضه والتي ما نزال نبدي فيها ونعيد، جاءت كلها حول صحة النص وعصمته، وتواتر نقله، ومناهج فهمه وتفسيره، والقليل القليل أجم نحو كيفية التعامل مع النص القرآني وإعماله في حياتنا؛ حتى دراساتنا حول النص القرآني ما نزال نعتزف مما وضعه الأقدمون، ولم نتعد أو نتجاوز ما أنتجوه.

وقد تكون الإشكالية الكبيرة محاصرة النص القرآني، وذلك بالتخويف من التفكير في آياته وعطائها، وإحاطته بأسوار من القدسية، وجعل النظر والفهم، وفقاً أو حكراً على طبقة معينة أو مستوى معيناً، وتلك إحدى العلل الكبرى، التي لحقت بالأمم السابقة وبكتابها (حملة الكتاب المقدس)! وكان العقل قد توقف، ومعاني القرآن قد نضبت، وكان عطاءه جاء مناسباً لفترة زمنية مضت وانتهت، وخلوده وقدرته على الإنتاج دعوى بلا دليل!

ويبقى السؤال الأهم: لماذا هذه الدراسات؟ وما هي الأهداف والمقاصد المرجوة منها، في مختلف الآفاق؟ وهل توصلت إلى ملامح وآفاق جديدة، وقدمت النظر من زوايا جديدة إلى النص من خلال واقع الحياة واختلالاتها، أم اكتفت بالتعريف للوسيلة، والوصف لها، وما قاله الأقدمون بشأنها، دون تقديم أية إضافات؟ والأخطر في الموضوع تسمية ذلك علماً دون أن يحدث ثمراته، التي وجد من أجلها!

فالأمر في معظمه دوران في عقول السابقين، وفي هذه الحال ستبقى المشكلات إما معلقة وإما مؤهلة لاستدعاء (الآخر)، بثقافته وحلوله؛ للملاءمة الفراغ.. ولعل الإلقاء بالتبعية والمسؤولية على (الآخر) لإعفاء (الذات)، في المجال العلمي والثقافي، أمر محزن وبائس؛ فكيف السبيل إلى معرفة حدودنا ومسؤولياتنا عن أمتنا وكتابها الخالد؟

فأين نحن من القرآن؟ وأين القرآن منا؟

فالقرآن عندنا انتهى، في واقع الحال وفي الغالب الأعم، إلى صفحات الذاكرة، التي تجتهد في تكراره ومراجعتها خشية نسيانه أو ضياع بعض آياته، أو التلاوة ومعاودة التلاوة، التي قد لا تتجاوز اللسان والحنجرة.

اليوم، بات يستغرقنا الجدل حول عظمة القرآن، وإعجاز القرآن، والاقْتِصَار على رفع الشعارات عن أهمية تحكيم القرآن في حياتنا، وأن القرآن دستورنا، عن تنزيل القرآن على واقعنا والالتزام بتكاليفه، ضمن استطاعتنا، والتحول من الجدل حول الموضوع إلى العمل بالموضوع.

إن المعرفة بالمنهج وسائر الوسائل والأدوات ما لم توصل إلى الإنتاج المأمول وتعالج المشكلات، التي تعاني منها الأمة تفتقد قيمتها؛ وإن المؤسسات المعنية ما لم تحقق النقلة النوعية والتغيير نحو الأفضل وتمنح مفاتيح لحسن التعامل مع القرآن وقيم الوحي يصبح الكثير منها هياكل وأشياء لا معنى لها.

لذلك نعتقد أنه لا بد من تقويم هذه الوسائل، والحكم على جودتها وصلاحيتها بمدى ما تحقق من إنتاج، ذلك أن التغيير المتسارع في حركة الحياة،

الذي يستدعي التغيير المتسارع أيضاً في مشكلاتها، يتطلب المراجعة وإعادة النظر المستمرة بالوسائل والأدوات، التي نستخدمها، حتى ولو أثبتت جدواها في الماضي، فهذا لا يعني قدرتها أو خلودها؛ لأنها في الأصل مواضع بشرية جاءت ثمرة لرؤية وبيئة وظروف أتى عليها التغيير، فصلاحياتها لمرحلة لا تعني صلاحيتها لكل المراحل، فالإصرار عليها رغم عدم إنتاجها هو إساءة لها على كل حال، والنيل من قيمتها التاريخية.

فالقرآن خالد وبجرد عن حدود الزمان والمكان - كما أسلفنا - لذلك فغياب الإنتاج، وغياب إيجاد الأوعية القرآنية لحركة الأمة والحلول القرآنية لمشكلاتها والإجابة الصحيحة لأسئلتها، لا يقتصر سوءه على إحداث الفراغ، الذي استدعى ويستدعي (الأخر) بحلوله ويقصي القرآن عن حياة الناس، وإنما يعتبر شاهد إدانة لكل الأدوات والوسائل والمناهج، التي ما تزال معتمدة، حتى ولو عجز معتمدها عن تعدية الرؤية إلى أفق معاصر آخر.

ولعل الميزة الأهم للقرآن، على أهمية مزاياه كلها، أن بعض وجوه إعجازه تنزيل آياته على حياة الناس تحققه من خلال عزمات البشر، وأن هذا الإعجاز سما وارتقى ببياناتهم وعقولهم وثقافتهم وعمارتهم وأخلاقهم وعلاقاتهم، وشكّل لهم القوة والفاعلية الدافعة للارتقاء والنهوض، والمناعة من الذوبان والسقوط.

فكم من الدراسات المتنوعة، التي نشأت حول القرآن في مختلف صنوف المعرفة وفنونها، محاكاة للإعجاز، ومحاولة لإدراك أبعاده، فكانت بمثابة جداول لغوية وبلاغية وتشريعية وبرهانية وفنية وثقافية، مصبها النهائي جميعاً هدف القرآن في صناعة إنسان الوحي، وتقديمه أنموذجاً بشرياً قرآنياً معطاءً.

وبعد:

فهذا الكتاب، الذي يتوافق إصداره مع شهر رمضان المبارك، الذي وصفه الله تعالى بأنه وعاء القرآن ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ... ﴾ (البقرة: ١٨٥)، ذلك أن هذا الشهر الكريم، الذي نزل فيه القرآن، في تاريخ الأمة وحياتها، يكاد يكون وعاء لكل إنجازاتها الحضارية وعطائها الإنساني، ويشكل المحطات الكبرى في انطلاقتها، لكن أعظم ما يمثل شهر رمضان للمسلم ويمتاز به هو بدء نزول القرآن، أعظم ما تمتلك الأمة المسلمة في مراحل حياتها كلها.

صحيح أن هذا الكتاب تمحور حول إبراز معالم وتميز الفن القصصي في القرآن، حيث إن القصة القرآنية هي إحدى وسائل القرآن وأساليبه في خطاب الإنسان، بكل ما تمتلك القصة من وسائل وأدوات التأثير الفنية، والاستغراق في تتبع الأبعاد الفنية، والقيام بالمقارنات والمقاربات، التي اجتهدت الباحثة في إبرازها، إلا أن هذا الجهد الملفت لا يجوز أن ينسبنا أو يغيب عنا الهدف الأساس من القصة وغيرها وهو صناعة إنسان الوحي (العرفان)، وإنسان العقل (البرهان)، وإنسان البلاغة (البيان)، وأن القرآن يأخذ بأيدي الناس للتي هي أقوم، ويُلحق الرحمة بهم.

وتأتي أهمية القصص القرآني، الذي شغل مساحات تعبيرية وفنية كبيرة ومؤثرة في القرآن، في أنها تمثل رحلة البشرية وما لحقها من علل، وتاريخ النبوة وكيفية تعاطيها مع الحياة، في كل الظروف والأحوال، وتقدم نماذج للاقتداء في المجالات الحياتية المختلفة، وتمنح دليل العمل لكيفية التعاطي مع الصراع الأزلي

بين الخير والشر، والعدل والظلم، والحرية والاستبداد والاستعباد، والألوهية والتأله، والتوحيد والشرك، والله والطاغوت، والإيمان والكفر، والمستضعفين والكبراء، وتكشف عن طباع النفوس وخصائص الشعوب.

فالقصاص موطن عبرة، ودليل عمل، في الوقت نفسه، انتهت جميعها لتسجل ضمن السجل القرآني بحيث تشكل رصيد التجربة النبوية التاريخية لأمة الرسالة الخاتمة؛ لتبصر البيّنات، التي أرسل بها الأنبياء وأنواع الإشكالات والاستجابات، التي واجهتها النبوة.

والأهم من ذلك كله التحقق بالعبرة، والإفادة من التجربة، وبذلك نضيف أعماراً إلى عمرنا، وعقولاً إلى عقلنا، وتجارب إلى حياتنا، ونختزل رحلة الضياع والضللال المحتملة لكل أمة: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ أَلْرُسُلِ مَا نُنَزِّلُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠)، وتثبيت الفؤاد إنما يكون بالاعتبار بالتجارب والإفادة من خلاصة التجربة، والصر على التحدي، والقناعة بأن المعول عليه هو العواقب البعيدة وليست النتائج القريبة وجولات الغلبة السريعة. والعبرة في الحقيقة والواقع هي امتلاك الأهلية والخبرة والإمكانية لكيفية العبور الآمن لصناعة المستقبل، الذي يأخذ بالاعتبار ثغرات وإصابات الماضي فيتجنبها، فالعاقل الذي يعتبر بغيره، والأحق الذي يكون عبرة لغيره، ويقى التاريخ هو المخترع الحقيقي لمسالك الأمم، ولاكتشاف السنن الاجتماعية الفاعلة في الحياة والأحياء، ولبصارة الطريق، والاطمئنان إلى سلامة الاختيار.

ولله عاقبة الأمور.

مدخل:

نزل القرآن الكريم بلغة عربية، تجمع بين اعتبارها وسيلة إبلاغية، وبين كونها وسيلة معرفية جمالية نزلت بلسان عربي مبين. والإبانة هنا تؤكد إعجاز القرآن الكريم من خلال علاقة اللغة ببعديها الإبلاغي والجمالي. وقد سعى القرآن الكريم في تقديم جزء كبير من خطابه من خلال مادة قصصية، سادت في جل السور، بشكل يجعل المتأمل يكتشف أن خطاب القص فيه، ليس بمجرد إخبار عن أحداث ماضية من أجل العظة والاعتبار، وإنما أيضاً هو تأسيس لسياق جمالي وثقافي، يرسخ حقيقة التوحيد، وينسج خصوصيات جمالية ومعرفية، مغايرة لسياق الشرك وآفاته، ولمرجعية الشعر وسطوته.

من هنا كان الاقتراب من استجلاء بعض ملامح جمالية القص في القرآن الكريم، يعد مطلباً ملحاً، يسعف في محاولة ملامسة ما تحمله بعض سماتها من العطاءات الربانية، المخاطبة لمقامات المتلقي في مختلف ما تبسطه المادة القصصية وتنوعها، المبتوثة على طول القرآن الكريم، واستنباط دلالاتها وفهمها، والارتقاء في معارجها،

من أجل تحقيق الفهم والتدبر، وإنزال مقاصدها وجمالياتها على واقعنا المعيش، للمساهمة في إعادة تشكيل عقل ووجدان الإنسان، وتطبيق العمل بمقتضاها.

وأروم في هذا الاقتراب، بإذن الله، الاستناد إلى التفاعل المستمر مع القرآن الكريم، ومحاولة خوض غمار مسالكه وحدائقه، والإنصات إلى نبض معانيه ورهيف جمالياته بعمدة البلاغة، وقدح زناد الأسئلة الفنية والمعرفية، واستصحاب مصادر التفسير، من قرآن وسنة نبوية وبعض التفاسير المعتبرة. وقبل هذا وذاك، استحضر التأمل والتذوق السليم، كي لا يضيع الهدف الأسمى من أي قراءة أو فهم، ألا وهو تعبيد الحياة لله رب العالمين.

تجلية المفاهيم

- مفهوم البلاغة:

تعتبر لفظة البلاغة في المعاجم العربية على وصول الشيء أو إيصاله إلى غايته ونهايته، تقول: بلغ الشيء يُلغ بُلوغاً وبلاغاً: إذا وصل وانتهى إلى غايته، وتقول: أبلغت الشيء إبلاغاً وبلاغاً، وبلغته تبليغاً، إذا أوصلته إلى مراده ونهايته، والبلاغة هي الفصاحة^(١). أما عند اللغويين القدامى فهي: مطابقة الكلام لمقتضى حال من يُخاطَب به، مع فصاحة مفرداته وجمله، وإصابته مواقع الاقتناع من العقل، والتأثير من القلب^(٢)، أي هي سبيل الإقناع والإمتاع أيضاً. ومن هذا حدد على الجارم ومصطفى أمين، مفهوم البلاغة بأنها: «تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن، الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطَبون»^(٣).

وعلى هذا الأساس، فالبلاغة تجد مكانها في مختلف الحقول المعرفية، الأمر الذي يعني أن لها علاقة وطيدة بالنص الأدبي في شتى مظاهره الفنية والتعبيرية، وأنها وسيلة وذريعة في اكتناه أسرار البيان وتذوق جمالياته^(٤)، كما أنها مدخل

(١) انظر: جمال الدين ابن منظور، لسان العرب (دار الفكر، ١٩٩٠م) ٦/٤٢١-٤٢٢.

(٢) انظر: الجاحظ، البيان التبيين، مكتبة الهلال، ص ٦.

(٣) البلاغة الواضحة، ص ١٠.

(٤) محمد إقبال عروي، أليات منهجية في استثمار الدرس البلاغي، ضمن كتاب بلاغة النص القرآني (منشورات مركز الدرايات القرآنية، ٢٠١٤م) ص ٧٥.

لعلوم الآلة في تحليل النص، ومعرفة المقاصد والأغراض، وكيف أبان المتكلم عنها، وكيف يهتدي الدارس البلاغي إلى سرها^(١)؛ والعمدة في إدراك البلاغة هو الذوق والإحساس الروحاني^(٢).

- مفهوم القصة القرآني:

يعبر معنى القصة لغة عن تتبع الأثر وتفصيله، يقال: خرج فلان قصصاً في أثر فلان، إذا اقتصر أثره، وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خيراً بعد خير، وسوقه الكلام سوقاً^(٣). وقد ذهب المفسرون إلى هذا الأصل اللغوي، يقول الفخر الرازي: «القصص اتباع الخبر بعضاً بعضاً، وأصله في اللغة: المتابعة.. قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتَيْهِ فَصِيحَةٌ﴾، أي اتبعي أثره.. وإنما سميت الحكاية قصة: لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً^(٤)، ويقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢): «والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة»^(٥).

أما في العصر الحاضر فإن لمصطلح القصة «ثلاثة مفاهيم تداولها منظرو القصص هي:

(١) محمد أبو موسى، مراجعات في أصول الدرس البلاغي، ص ٦٦.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٤١٨.

(٣) انظر لسان العرب، المجلد السابع، ص ٧٤/٧٥.

(٤) التفسير الكبير، ١٨١/٢.

(٥) التفسير الكبير، ٢٠٣/٢.

- أنها ملفوظ قصصي بمعنى الخطاب القصصي، يكون شفويّاً أو مكتوباً، وينقل حدثاً أو سلسلة من الأحداث.

- أنها تكون بمعنى الحكاية، التي تتمثل في المضمون القصصي، الذي قوامه الأحداث، واقعية كانت أو متخيلة.

- أنها فعل للقص في حد ذاته أو ما يسمى أيضاً سرداً. ولئن اختلفت مفاهيم القصة في هذه التعريفات فإنها، في نهاية الأمر، ملتزمة في مفهوم أوسع ينتظمها. فهي تقال أو تكتب لتخبر عن الأحداث الجارية في الحكاية. وهي حامل للمضمون القصصي. وهي أيضاً مجال تظهر فيه علامات تحيل على فعل القص أو السرد، الذي ينجزها»^(١).

أما علم السرد^(٢) فحين يتناول مفهوم القصّ فإنه يشير إلى ثلاثة معانٍ لهذا القص تتمثل في: الأول: المضمون السردى (الحكاية)، الذي يتمثل في الأحداث المضمّنة فيها؛ والثاني: فعل القص نفسه (طريقة السرد)، وما يتبعه من إنشاء علاقات بين أطراف عملية السرد (السارد، السرد، المسرود له)؛

(١) معجم السرديات، مجموعة من الباحثين، إشراف: محمد القاضي (الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ٢٠١٠م) ص ٣٣٣.

(٢) علم السرد: قام على دراسة مختلف أجناس السرد كالحكاية العجيبة والأسطورة والمقامة والرواية والقصة القصيرة وغيرها، وأول من نظر له الشكلاونيون الروس خاصة «بروب» في كتابه «مورفولوجيا الحكاية الخرافية»، وتبعهم في ذلك عدد من الغربيين أمثال «جنيت، وتودوروف، وإسارت، وكريماس»، وقد استفاد الدارسون العرب من تنظيراتهم كمعيد يقطين في كتابه «تحليل الخطاب الروائي»، وحكمت الخطيب في كتابه «تقنيات السرد الروائي»، وصلاح فضل في كتابه «أساليب السرد في الرواية العربية» وغيرهم.

والثالث: الملفوظ السردى، أي الهيئة التي يظهر عليها فعل القصة مكتوباً أو شفهاياً^(١).

والسؤال الذي يواجه الباحث في مجال القصة القرآنية، هل يخضع القصة القرآنية لهذه المعاني؟؟

يجب أن ندرك بداية أن القصة القرآنية لا يخضع بالضرورة لشروط القصة الإنسانية؛ لأن مبدعه هو الله عز وجل، الذي أبدعه لأغراض دينية وجمالية ومعرفية، يدعوننا إلى اكتشافها من خلال التبصر والتدبر، لكننا نستأنس بهذه المفاهيم، لتحديد فهمنا لها، بعد أن نتبع مظان ورود مادتها في القرآن الكريم. إن لفظ القصة ومشتقاته في القرآن الكريم يقترب من معنى المتابعة، إلا أننا يمكن أن نشير إلى كون من يتبع الخير في القصة القرآنية هو الله عز وجل، الذي هو مطلع عليه بصورة شاملة، فهو كلي العلم والمعرفة: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (الأعراف: ٧).

وقد وردت مادة (ق ص ص) في عدد من سور القرآن الكريم، منها واحدة سميت القصص، أولها من حيث ترتيب المصحف كلمة (القصص) في الآية (٦٢) من سورة آل عمران، وردت تعقيباً على قصة عيسى، عليه السلام: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّا لَكُلِّهِ لَهَوِّ الْمَرِيضِ الْحَكِيمِ﴾. والقصص الحق هنا ينفي الألوهية عن غير الله^(٢).

(١) انظر: إبراهيم عبد المنعم، بلاغة المرد القصصي، ص ٦.

(٢) محمد أحمد حمدون، القصة القرآنية، قراءة تأملية، مجلة المنهل، عدد ٤٩١، المجلد ٥٣، ١٩٩١م، ص ٢٦٧.

ثم ورد الفعلان (قصصنا، ونقص) في الآية (١٦٤) من سورة النساء:
﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾
وذلك في معرض تأكيد وحدة الرسالة السماوية.

ثم وردت في كل من سور الأنعام والأعراف وهود وغافر. وتشارك هذه الألفاظ في معنى إيراد أخبار الأمم السابقة، وترتبط ببيان الحقيقة الإلهية وبعث الرسل برسالة ذات غاية وهدف واحد، وتثبيت فؤاد النبي ﷺ، كما «تشير إلى حقيقتين، أولاهما: كون القصص بعلم، أي صادراً عن معرفة يقينية وليس مجرد تخيل، وثانيتهما: الإشارة إلى هدف القص وهو التدبر والتقوى والصلاح»^(١)، والثبات على الحق.

ويعتمد القرآن الكريم عدداً من المرادفات، التي تشارك مع المعنى القصصي وديمومته للشروع في فعل القص/السرد وإيراد الخبر على مستوى الفعل والمصدر، إلا أنها تكتسب دلالات أخرى حسب السياق، الذي ترد فيه. من هذه المرادفات:

- الحديث: ويعني الخبر لغة، ويحضر في النص القرآني بدلالات مختلفة، لكن ما يهمنا في هذا الصدد هو حضوره للتعبير عن الشروع في فعل القص/السرد، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (طه:٩).

(١) المرجع السابق.

من هنا يمكن أن نفرق بين مستويين من مستويات القص
في القرآن الكريم:

- مستوى الأخبار السردية المنتجة لفعل القص، كما في الآيات
(١٣-٢٠) من سورة البقرة.

- مستوى القصة باعتبارها متناً حكاياً، ينتظم وفق نسق المبنى الحكائي
الخاص، كما في قصة بداية الخلق في سورة البقرة. والمستويان معاً يجمعهما
مصطلح القصة القرآنية، بوصفها بنية مكتملة، تحمل في طياتها معناها الخاص،
الأمر الذي يحتاج إلى تقص علمي دقيق لتوصيفها. ولا شك أن البلاغة
ستكون عدة مسعفة لاستنطاق مكنوناتها وجمالياتها.

- مصطلح التلقي:

التلقي في اللغة: هو الاستقبال عموماً^(١)، كما في قول الله تعالى:
﴿لَا يَخْرُجُ عَنْهُمْ الْغَيْبُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمَئِذٍ
الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٣)، أي تستقبلهم، وفي هذا المعنى
أيضاً جاء قوله تعالى: ﴿إِذْ نَلَقْنَا الْمُتَلَفِّيْنَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾
(ق: ١٧)، أي يستقبل الملكان ما يصدر عن الإنسان من أقوال فيسجلها.
وقد أشارت الآية الكريمة إلى دلالة التلقي بصيغته الفعلية في حركيتها الزمنية
(الحاضر المستمر) وفي صيغته الاشتقاقية: ﴿نَلَقْنَا الْمُتَلَفِّيْنَ﴾ في ثبوتها ودوامها

(١) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، مادة: لقي، لسان العرب، المجلد ١٥، ص ٢٥٦.

تُمنح صفة مكانية ثائية للتلقي؛ من خلال كل سلوك وحركة إنسانية عبر
اليمن والشمال.

وقد ورد لفظ التلقي في القرآن الكريم للدلالة على التعليم والتلقين
والتوفيق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا
ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٢٥)، وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَلَقْنَا بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾
(النور: ١٥)؛ أي يأخذ بعض عن بعض، و﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾
(البقرة: ٣٧) معناها أنه أخذها عنه، ومنه لَقِنَهَا وتَلَقَّنَهَا^(١).

وأما تلقي القرآن: فهو استقبال القلب للوحي، إما على سبيل النبوة،
كما هو الشأن بالنسبة للرسول ﷺ، على نحو ما في قول الله تعالى:
﴿وَإِنَّكَ لَنُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل: ٦)، إذ ألقى الله عليه
القرآن بهذا المعنى، كما فسره الراغب الأصفهاني من قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلَقِي
عَلَيْكَ قَوْلًا نَّبِيًّا﴾ (المزمل: ٥)، قال، رحمه الله: «إشارة إلى ما حُمِّلَ من
النبوة والوحي»^(٢).

وأما أن يكون (تلقي القرآن) بمعنى: استقبال القلب للوحي، على سبيل
الدُّكْرِ^(٣). وهو عام في كل مؤمن تلقى القرآن روحاً من الله عز وجل بقلبه
وعقله وجوارحه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا

(١) لسان العرب، المجلد ١٥، ص ٢٥٦.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، مادة: (لقي).

(٣) فريد الأخصاري، مجالس القرآن من التلقي إلى التزكية، ص ٥٧.

مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْتَدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ
مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿الشورى: ٥٢﴾.

وبهذا المعنى يكون التلقي من صميم المفهوم الرسالي للدعوة؛ لأنه بدون تلقي الوحي وضوابط هذا التلقي وشروطه لا يمكن تحقيق الرسالية وتطبيقها وتصديرها أيضاً، «فالقارئ له ليس عنصراً مستهلكاً، بل عنصر متفكر فيه، فكان لزاماً أن يتحقق الفهم والإفهام للذات السامعة القارئة حسب مستوى الإدراك والوعي»^(١).

وتلقى القرآن بمعنى استقبال القلب للوحي، على سبيل الذكر؛ إنما يكون بتعامل العبد بصورة شهودية، أي كأنما هو يشهد تنزله الآن غصاً طرياً، فيتدبره آية آية، باعتبار أنها تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فتبعث قلبه حياً في عصره وزمانه، ومن هنا وصف الله تعالى العبد، الذي «يتلقى القرآن» بهذا المعنى؛ بأنه يُلقِي له السمع بشهود القلب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿ق: ٣٧﴾^(٢).

وأن يتلقى الإنسان القرآن، معناه أن يصغي إلى الله يخاطبه، فيصير حقائق الآيات وهي تنزل على قلبه روحاً، وبهذا تقع اليقظة والتذكر، ثم يقع التخلُّق بالقرآن، على نحو ما هو مذكور في وصف رسول الله ﷺ، من حديث

(١) انظر: باسل خلف حمود الزبيدي، مفهوم التلقي والقراءة والتدبر في ضوء نقد نظريات التلقي، ص ١٣.

(٢) انظر: مجالس القرآن، مرجع سابق، ص ٥٧.

أم المؤمنين السيدة عائشة، رضي الله عنها، لما سئلت عن خُلُقِهِ ﷺ؛ فقالت:
 «كَانَ خُلُقَهُ الْقُرْآنَ»^(١).

ومعناه أيضاً أن تنزل الآيات على موطن الحاجة من قلب الإنسان
 ووجدانه، كما ينزل الدواء على موطن الداء، فآدم، عليه السلام، لما أكل هو
 وزوجه من الشجرة المحرمة؛ ظهرت عليهما أمارة الغواية؛ بسقوط لباس الجنة
 عن جسديهما، فظل آدم، عليه السلام، كئيباً حزيناً، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا
 مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى
 آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه: ١٢١).

ولم يزل كذلك حتى (تلقى) كلمات التوبة من ربه فتاب عليه؛ فكانت له
 بذلك شفاءً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ
 هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧). فهو عليه السلام كان في حاجة شديدة إلى
 شيء يفعلهُ أو يقوله؛ ليتوب إلى الله، لكنه لا يدري كيف؟ فأنزل الله عليه
 - برحمته تعالى - كلمات التوبة؛ ليتوب بها هو وزوجه إلى الله تعالى. وهي - كما
 يقول المفسرون - قوله تعالى: ﴿فَأَلَّا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
 لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣)، فبمجرد ما أن تنزلت الآيات على
 موطن الحاجة من قلبه؛ حتى نطقت بها الجوارح والأشواق؛ وكان آدم، عليه
 السلام، بهذا أول التوابين، وذلك أخذه كلمات التوبة على سبيل (التلقي)^(٢).

(١) أخرجه مسلم.

(٢) مجالس القرآن، مرجع سابق، ص ٥٨.

فكان ذلك التلقي أول مدارج العروج إلى مقام «كلمات الله»، واتضح من خلال استعماله القرآني أنه وسيلة عملية للتفاعل الوجداني والعقلي مع القرآن، لخط سطور منظومة معرفية وسلوكية وجمالية تتحقق من خلالها أسس الرقي الإنساني، كما كان الشأن في عهد النبوة، وكما هو مطلوب في كل الأزمان، حين يعمل المتلقي على تلقي القرآن بوعي وإعمال للبصيرة والتفكير، بوصفه نظاماً ومنهج حياة، يقوم على عقيدة التوحيد، التي تسمه بالتمييز والتفرد. وقد اهتم التراث العربي بجمالية التلقي، فجاءت ماثورة في ثنايا اهتمامه بقضايا النص، خاصة تلقي القرآن الكريم والشعر، عقب حقب زمنية مختلفة، فترددت عند الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) وغيرهم بألفاظ مرادفة كالسامع والمستمع والمخاطب والجمهور والمقام.

– أغراض القصة القرآنية:

إن أغراض القصة القرآنية كثيرة، لكنها تنفرع إلى فروع ثلاثة تتكامل فيما بينها:

فرع ديني، باعتبار القصة وسيلة من أهم الوسائل التي استثمرها القرآن الكريم في نشر الدعوة والقيم الإنسانية، وإقامة الحججة على المعاندين والمشركين، وتثبيت المؤمنين على الحق وتهدئتهم وتصحيح العقيدة والأخلاق في أنفسهم، الأمر الذي يعني أن ما ورد في القرآن الكريم من أخبار تاريخية لا تدعو إلى البحث والتعليل والتفسير التاريخي بقدر ما تدعو إلى أخذ العبر: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١).

وفرع معرفي؛ لأن أسلوب السرد والقص مبثوث في كل مكان من القرآن الكريم بشكل يجعل المتلقي على اتصال معرفي وثقافي بما تحمله القصة من رؤى ومواقف ومفاهيم حول مجموعة من المنظومات المتجلية في الكون والحياة والإنسان، لذا يبحث تعالى رسوله ﷺ على تقديم وبيان هذا الزاد المعرفي للناس لعلهم يؤمنون عن علم ومعرفة؛ لأن المعرفة في المفهوم الإسلامي ليست مطلوبة في ذاتها، وإنما في ما يمكن أن تخلقه من وعي يساهم في إثراء الحياة الإنسانية بالعقل والإيمان، ﴿فَأَقْصِبْ قَصْبِ الْقَصَصِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

وفرع جمالي، ذلك أن القصة القرآنية تعتمد أسلوباً فنياً وجمالياً مؤثراً، يفي بكل آليات وشروط التعبير الفني وعناصر السرد الحكائي المتميز، ويجعل من التصوير أساساً له، للتأثير على وجدان المتلقي بلغة الجمال^(١)، وعرض مختلف المواقف والأحداث عرضاً جمالياً، وإن كان هذا العرض يخضع لمكون الالتقاء خدمة للغرض الديني.

وهذا التكاملي في الأغراض والمقاصد يجعل القصة في القرآن الكريم إحدى أهم وسائل التبليغ القرآنية المتعددة في الشكل، والمتحدة في الهدف، تنقل إلى الإنسان تجارب إنسانية مختلفة ومتعددة، وقعت في أزمنة وأمكنة معينة، لكن بطريقة تقديمها وأسلوب عرضها المعجز في القرآن الكريم، يجعلها تناسب في حاضر المتلقي وعقله ووجدانه، كي يأخذ منها العبرة، ويعيد بما تجديده واقعه وحياته^(٢).

(١) انظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، ص ١٤٤.

(٢) انظر: نساء في دائرة العطاء، مرجع سابق، ص ٧.

الفصل الأول

المادة القصصية ومقاصد تلقيها

المبحث الأول

المادة القصصية في القرآن الكريم

وردت المادة القصصية في القرآن الكريم مبثوثة على طول مساحته، في أغلب سورته، الأمر الذي يجعل المتلقي يتفاعل بشكل مستمر، بما تتضمنه من رؤى ومضامين حول مجموعة من التحليلات الموجودة في الكون والوجود والحياة والإنسان والغيب والشهادة، وذلك بتلقيها لجوانب مختلفة ومتنوعة من حياة الأنبياء والأمم السابقة، وتفعيل تجربتها الإنسانية عبر ثنائية الكفر والإيمان. وقد توزعت هذه المادة بمئة هندسية متفردة، وإيقاع منسجم مع سياق ومكونات السور، التي وردت فيها.

فالمادة القصصية تعلن عن حضورها وديمومتها، من خلال بناء تصور فكري ومعرفي وجمالي، يسعى لاستكمال حلقات الاستنباط المتجدد للأحكام الفقهية والتشريعية والقيم الإنسانية، فضلاً عن تلبيتها لاحتياجات نفسية وتربوية وجمالية عميقة.

والتلقي للقرآن الكريم، ليندهش من وفرة هذه المادة، بحيث ما يكاد يستهل سورة البقرة، إلا ويجد نفسه أمام صورة قصصية أو حوار قصصي أو غيرها، لتتوالى بعد ذلك المادة القصصية بشكل يفوق توقعاته.

ويمكن أن نفرق بين نوعين من القصص في القرآن الكريم:

النوع الأول: وهو المتكامل، الذي له بداية ونهاية، فلكل نبي مذكور في القرآن قصة، ولكل أمة سلفت رواية، ولكل حادثة ذات مغزى في حياة رسول الله ﷺ ومن معه حكاية، كقصة إبراهيم وعيسى وهود وثمود وموسى ويوسف، وفتية الكهف وغيرهم.

النوع الثاني: وهو المفتوح، الذي لا تتوفر فيها شروط القصة المتكاملة من بداية ونهاية وشخصيات معروفة، وإنما تسرد مجموعة من المواقف واللمحات الإنسانية، أو إشارات موجزة لقصص بعض الشخصيات.

وإذا استعزنا المفاهيم الحديثة في مقارنة أشكال هذه المادة القصصية المتنوعة، والمختلفة، نجدها تتمثل في:

- القصة الطويلة: أو الرواية، فبالرغم من أنها جنس أدبي يستعصي على التحديد، إلا أن لها مكونات أساسية تميزها عن الأجناس الأدبية الأخرى، منها: أنها شكل أدبي سردي يحكيه سارد، وبهذا تختلف عن المسرحية، التي تُحكى قصتها من خلال أقوال وأفعال شخصياتها، وهي أطول من القصة القصيرة وتُغطي فترة زمنية ممتدة، وتضم عددًا من الشخصيات، وتفصل في السرد بدلاً من التكتيف. ونجد قريباً من هذا المفهوم قصة يوسف، وقصة موسى في سورة القصص.

- القصة القصيرة: ويتم التركيز فيها على حدث أو موقف معين يكون هو بؤرة الحكى، وتمتاز بالتكثيف والقصر، مثالها قصة يونس مع قومه في سورة الصافات.

- القصة الحوارية: وهي القصة، التي يغلب عليها أسلوب الحوار، كقصة الخلق في سورة البقرة.

- الإشارة القصصية: ونجدها تأتي بشكل ضمني في سياق معين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ طَآءَآئِنُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَحِينُهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِتْمَهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاعِدٍ فَسِقِقِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٤)، وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّتِي قَاتَا فِي بَدْرٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْآيِنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَوِئْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٣).

- الشذرة القصصية: وهي ما يعرف بالقصة القصيرة جداً، من حيث التكثيف والقصر وغير ذلك، ومثالها قصة نصره رسول الله في هجرته في سورة التوبة، والمرأة التي نقضت غزوها في سورة النحل وغيرها.

وهذه المادة القصصية «لا تقوم فقط إلى جانب دورها البياني، بدور الربط والمقارنة بين مواقف متعددة، بل تبدو وكأنها النسيج الفني المحكم لقصة واحدة تصل إلى غايتها حين يتخلى الإنسان، كل إنسان في كل زمان ومكان، عن عناده وإصراره ويؤمن»^(١). وهي تتميز بسمات وخصائص

(١) محمد أحمد حمدون، القصة القرآنية، قراءة تأملية، المنهل، عدد ٤٩١، سنة ١٩٩١م، ص ٢٧٧.

جمالية عديدة، يفضي بعضها إلى بعض في ترابط محكم، منها الكثرة والتكرار والتذييل.

١ - الكثرة:

إن استقصاء المادة القصصية في القرآن الكريم لا تكاد تجد لها حصراً، فابتداء من سورة البقرة إلى آخر السور القصار، يجد المتلقي نفسه إزاء مشاهد وصور وأحداث يعرضها الله تعالى عرضاً سردياً مبهرًا، ففي سورة البقرة مثلاً تطالعنا «صور قصصية تقوم على حوار بين الحق وبين الذين كفروا، وفي هذه الصور تصوير لما ختم الله به على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فلا يستجيون لحق ولا يكفون عن باطل»^(١)، ولأحوالهم مع الكفر والاستكبار. وهي آيات^(٢) تستعرض حلقة من حلقات لا متناهية، مكونة من الدعوة إلى الله والرفض والاستكبار أو الإذعان والإيمان والعاقبة والمصير، وتشكل البنية النواة، التي تكررت دلالاتها في كل القصص القرآني، باستثناء قصة الخلق، التي تمثل مقدمة وسبباً لوجود هذه النواة.

و«ما نكاد نخرج من هذه الصورة القصصية حتى ندخل في أول قصة بتفريعاتها المتكررين في القرآن الكريم وهي قصة آدم، خلقه وهبوطه إلى الأرض وتمرد إبليس (٢٩-٣٩)، ومنها إلى قصة أخرى ذات تفريعات وتكرار، وهي قصة موسى مع فرعون ومع قومه (٤٠-١٢٣). ونلاحظ في هذه القصة

(١) انظر المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٢) البقرة، الآيات، ٨-٢٠.

التداخل مع قصة فرعية هي قصة البقرة الصفراء التي تمثل لجاجة بني إسرائيل (٦٧-٧٣) وهي لا تختلف عن اللجاجة التي عهدناها في الذين اشتروا الضلالة بالهدى في مطلع السورة»^(١).

وفي سورة آل عمران نجد قصة امرأة عمران، التي نذرت ما في بطنها لله عز وجل، وجانباً من حياة مريم واصطفائها ومعجزة خلق عيسى، إلى جانب سرد التجاء زكريا للدعاء ودوره في التبشير بيحيى، وختم الله تعالى هذه القصة بقوله ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢).

وفي سورة المائدة قصة موسى، عليه السلام، وقومه حين أمرهم بالدخول إلى الأرض المقدسة (٢٠/٢٦)، تعقبها قصة ابني آدم، عليه السلام (٢٧/٣٢)، وفي آخر السورة نجد قصة عيسى، عليه السلام، والمائدة.. وفي سورة الأنعام نجد قصة إبراهيم، عليه السلام، مع أبيه آزر وقومه (٧٤/٨٣).. وفي سورة الأعراف نجد تكراراً لقصة آدم، عليه السلام، وتمرد إبليس (١١/٢٧)، تعقبها قصص هود وصالح ولوط وشعيب مع قومه عاد (٦٥/٩٣)، ثم قصة موسى مع السحرة ومع قومه بعد أن عبر بهم البحر (١٠٣/١٧١).. وفي سورة الأنفال نجد ملامح سردية من جهاد رسول الله ﷺ وأولى معاركه مع المشركين (٧/٢٠)، وتمتد هذه الملامح إلى سورة التوبة (٢٥/٢٧)، التي فيها عرض لقصة مسجد الضرار (١٠٧/١١٠).

(١) القصة القرآنية، قراءة تأملية، المرجع السابق.

وهكذا في كل السور القرآنية نجد عرضاً قصصياً يسرد جانباً من جوانب قصة الإيمان والكفر في الحياة البشرية، وهي كلها تؤكد استمرارية قصة الإنسان على الأرض: حياده عن الحق ودعوته للرجوع إليه، أو الشر والخير في الإنسان مجتمعين^(١)، بالإضافة إلى ما تحمله من رؤى ومفاهيم ربانية حول مجموعة من القضايا والإشكالات المتعلقة بالكون والحياة والوجود والإنسان والغيب والشهادة والقيم.

٢ - التكرار :

إن متلقي القرآن الكريم يجد أن التكرار ظاهرة ملفتة للنظر في القصص القرآني، وداعية إلى الكثير من التساؤلات حولها، لكن المتأمل يدرك أن القصة لا تتكرر بألفاظها ودلالاتها، وإنما يقع ذكر جانب أو أكثر من القصة في موضع مناسبة، وذكر جانب آخر أو أكثر في غيره لمناسبة أخرى، استكمالاً للصورة العامة، التي يقررها القرآن في قصصه؛ لأن ذلك يخدم غرضين من أغراض القصة القرآنية، غرضاً فنياً يتمثل في تجدد أسلوبها، إيراداً وتصويراً، والتفنن في عرضها، إيجازاً وإطناباً، والتنوع في أدائها، لفظاً ومعنى؛ وغرضاً نفسياً يتجلى بما له من تأثير في النفوس، لأن المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية، التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها^(٢).

(١) انظر : القصة القرآنية، المرجع السابق، ففيه عرض تفصيلي للمادة القصصية في القرآن الكريم من البقرة إلى آخر السور.

(٢) انظر : سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، ص ١١٥.

وقد أسالت هذه الظاهرة مداد كثير من العلماء والباحثين، قديماً وحديثاً، فهذا السيوطي، مثلاً، يقول: «والتكرير أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة ومن فوائده التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر، وقد نبه سبحانه على السبب، الذي لأجله كرر الأفاضل من الإنذار في القرآن بقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾»^(١).

ويشير مصطفى صادق الرافعي إلى أن «التكرار، الذي يجيء في بعض آيات القرآن، يختلف في طرق الأداء، وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها، أو في بعض عباراته لتحقيق النعمة وترديد المنة والتذكير بالمنعم واقتضاء شكره إلى ما يكون من هذا الباب»^(٢).

فالقصة إذن، تتكرر في القرآن الكريم بدلالات جديدة وسرد مغاير، متوافق مع سياق السورة، التي وردت فيها، والمعنى المستفاد يختلف باختلاف السياق، لذا جاءت القصة الواحدة موزعة في عدد من السور، حسب السياق والمناسبة، باستثناء قصة يوسف، عليه السلام.

قصة خلق آدم وعمرد إبليس مثلاً تكررت في القرآن الكريم، لكن في سياقات مختلفة، وبأداء متنوع، وفي مواضيع عديدة، لكن يظل الهدف الأسمى

(١) الإتيان في علوم القرآن، ١/٦٢.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٢٥٥.

منها هو تحقيق العبودية لله وهداية البشرية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

ففي سورة البقرة يعلن الله عز وجل عن بداية خلق الإنسان، وأنه سيجمعه خليفة في الأرض، منذ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) إلى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٨-٣٩)، وكان التركيز فيها على مواقف الذنب والتوبة، وعلى استمرارية الحياة في الأرض.

لكن في سورة الإسراء، بسط الله تعالى جانباً آخر من قصة الخلق، ابتداءً من لحظة امتناع إبليس السجود لآدم، عليه السلام: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (الإسراء: ٦١)، حيث جلّى سبحانه، حقد الشيطان على الإنسان؛ لتكريمه عليه، ووعيده بإغوائه لبني آدم وإبعادهم عن الصراط المستقيم: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْسَنَنَّ دَرَجَتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٢).

فهنا تقرير وتأكيد على استطاعة إبليس على جر الإنسان من حنكه جر الدواب، لكن الله عز وجل يثبت أنه لا سلطان للشيطان على عباده

المؤمنين، مهما وسعه الجهد. يقول ابن كثير: «إن في هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على عظم خطر الشيطان على الإنسان، وأنه لا يترك طريقاً ولا باباً في إضلال بني آدم إلا سلكه ودخله، فإنه يأتي من جميع الجهات إلا من فوق الإنسان، فإنه لا يستطيع أن يحول بينه وبين رحمة الله».

وهذا التهديد أيضاً يشير إليه الله تعالى في عرضه لجوانب أخرى من قصة بداية الخلق: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٣٩)، وقال أيضاً: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمَسْتَقِيمَ﴾ ﴿ثُمَّ لَأَقْبِرَنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَبِأُخْرَاهُمْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٦-١٧).

وتعد قصة موسى، عليه السلام، من أكثر القصص تكراراً، حيث ذكره الله تعالى في مائة وعشرين موضعاً^(١)، موزعاً بين إشارات طويلة أو قصيرة، أو في مجال قصصي مشترك. ووقع تكرارها لتشابهها مع قصة رسول الله ﷺ، ولاحتوائها على قيم التأسى والصبر والثبات، يقول سيد قطب في هذا المجال:

«كانت قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل قصة حافلة بالعظات والعبر، التي لا يستغني عنها الرسول، في اقتحام العقبات والتعود على الصبر والتأسي بمن سبقه من الرسل، والصمود أمام القوى الغاشمة، ليجعل من

(١) انظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق يوسف مرعشلي (بيروت: دار المعرفة) ٣/٣٧.

الإسلام طلائع النور في أمة طال عليها الليل كما طال الأمد على بني إسرائيل فقسمت قلوبهم، وكان يهود المدينة أشد على الدعوة الإسلامية في المكر والغدر واللحاجة من مشركي مكة، فهم الذين حرضوا المشركين على الرسول ﷺ وتآمروا معهم واحتضنوا المنافقين في المدينة، وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والفس في صفوف المسلمين وتشكيكهم في عقيدتهم، فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف من هم أعداؤها؟ وما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم الطويل ﴿وَأَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَأَنَّ اللَّهَ شَرَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥)^(١).

وهكذا الأمر مع ما تكرر من القصص القرآني، حيث يقع في موقع تحدي الأمم السابقة لأنبيائهم وعدم استحابتهم للحق، والجزاء الذي يتلقونه، وسرد المراحل، التي مروا بها، في سياقات لها صلة بالتوحيد، الذي يسعى إلى ترسيخه وتحقيق عبادة الله، الأمر الذي يسعف في فهم التكرار، وطبيعة الانتقاء، الذي يقوم به الله عز وجل المنسجم مع المناسبة، التي ترد فيها، خاصة انتقاء الحدث والموقف والقيمة، وعرضها بأسلوب جمالي متنوع ومعجز، بحيث يشعر المتلقي أنه بصدد الجديد والمختلف.

(١) في ظلال القرآن، ١٢٥/٦.

٣ - التذييل:

التذييل لغة مصدر ذئيل، وهي جعل الشيء ذبلاً للآخر وتعقيماً عليه^(١). أما في الاصطلاح فقد عرفه الزركشي بقوله: «أن يُؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول؛ تحقيقاً لدلالة منطوق الأول، أو مفهومه؛ ليكون معه كالدليل؛ ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكُمّل عند من فهمه»^(٢).

ويعتبره بعض العلماء والباحثين من مظاهر انسجام النص القرآني وتماسك بنائه وإحكام بنيانه، و«سمة بارزة من سمات الأسلوب القرآني، ووجهاً فائقاً من أوجه بلاغته؛ وذلك لأنها تجمع بين وظائف معنوية، لكونها تزيد معاني الآيات بياناً وإيضاحاً، ووظائف جمالية، لكونها تمهد للتناسب الإيقاعي في رؤوس الآيات وقواصلها»^(٣).

وغماذج التذييل كثيرة ومتنوعة، ومتكررة أيضاً، تأتي مناسبة لسياقات القصة ومعناها العام، وتأكيداً على التخلق والاعتبار بصفات الله، والدعوة إلى الاختيار بين ثنائية الخير والشر أو الكفر والإيمان أو غيرها من القيم والمعاني الدينية.

ففي مطلع سورة الشعراء ترد مثلاً قصة اللحظة الحاضرة والرسول ﷺ باخع نفسه على آثار قومه حتى يكونوا مؤمنين، ولكنهم لا يزالون مختلفين، مكذابين، ويأتي التعقيب عليها بالآيتين الثامنة والتاسعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾، ثم ترد مجموعة

(١) لسان العرب، المجلد ١١، ص ٢٦٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ٦٨/٣.

(٣) التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ١٩، ١٩٩٢م، ص ٩١.

من قصص الأنبياء والأمم السابقة كموسى ونوح وثمود ولوط وأصحاب الأيكة، ليتكرر التذييل نفسه في ختام كل قصة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٣﴾، لتأكيد النتيجة الحتمية للصراع بين الحق والباطل، والتذكير بأن العزة لله، وأن الرحمة منه وحده سبحانه.

ومن أقوى التذييلات القرآنية، التذييل الذي ختم الله تعالى به قصة الجنتين في سورة الكهف، مؤكداً أن النصر لا يكون إلا من الله عز وجل: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُمْ فِتْنَةٌ يَصُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴾ ﴿٤٤﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٣-٤٤﴾، فبعد سرد القصة، التي برزت فيها الذات الإلهية، وأشارت إلى عظمة الله في خلقه، وبطر النعمة والكفر بالخالق عز وجل، وثبات المؤمن على إيمانه مهما كانت الظروف، والتغيير الذي يحدث جراء ذلك، يأتي التذييل للتأكيد على عظمة الذات الإلهية وقوتها، ورجوع الولاية إليها. الأمر الذي يؤكد ما لهذه السمة الجمالية في القصة القرآنية من أثر في روعة التصوير وجمال البيان، واختزال المعنى وتأكيديه. ولعل المتبع لها يكتشف أقسامها المتعدد وألوانها المتباينة.

٤ - الانتقاء:

وهو من أبرز خصائص القصة القرآنية، التي تبرز من خلال بعض الظواهر البلاغية كالتركرار والحذف والإضمار. فقد تكررت كثير من القصص في القرآن الكريم، لكن طريقة عرض أجزائها يتميز بالانتقاء من الأحداث والألفاظ بما يناسب السياق، الذي ترد فيه القصة.

من ذلك، مثلاً، قصة آدم، عليه السلام، فحياته حافلة بالكثير من الأحداث، ابتداءً من خلقه، كما أنها حافلة بالكثير من المواقف، التي تحدد تفاعله مع الكون المحيط به، سواء في الجنة أو في الأرض، وقصته تتكرر في القرآن في عدد من السور، لكن في كل قصة ينتقى من الأحداث ما يلائم السياق، الذي وردت فيه، ففي سورة البقرة مثلاً وردت قصة آدم في سياق الحديث عن وحدة الخلق، لذا كان انتقاء الأحداث ملائماً لإظهار هذه الوحدة مع تكريم الله لآدم بتعليمه، أما في سورة الأعراف مثلاً فقد وردت قصة آدم في سياق الحديث عن عصيان إبليس وعرض أسلوب غوايته لبني آدم.

من ذلك أيضاً ما نجده في قصة سليمان، عليه السلام، فقد وردت في أربع سور، وفي كل سورة ينتقى الله تعالى جانباً منها، يتم التركيز عليه، من ذلك التركيز على موته، في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتِهِمْ فَلَمَّا حَرَ تَيَّنَّتْ الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾.

كذلك يتضح الانتقاء جلياً في قصة موسى، عليه السلام، حيث ذكرت القصة في عدة سور مع التركيز على أحداث دون أخرى، فمثلاً تعرض القرآن لأول موقف من قصة موسى، عليه السلام، وهو إلقاؤه في اليم في عدة سور، لكن انتقاؤه للحدث يكون من أجل الكشف عن الموقف

الأساس منه، فمثلاً في سورة القصص يكون الكشف عن شعور الأم عند تلقي أمر إلقاء ولدها في اليم في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾، وفي سورة أخرى يكون الغرض من أمر إلقاء موسى في اليم، مناسباً لسياق العثور عليه من طرف من سيكون عدواً له، يقول تعالى: ﴿إِنِ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۗ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْتِي ۗ﴾ (طه: ٣٩).

فعرض بعض الأجزاء من القصة في سورة دون أخرى لتناسب مع سياق الآيات يوضح ظاهرة الانتقاء، التي تتميز بها القصة القرآنية. وهذا يعني أن المهم في عرض القصص ليس التأريخ لحياة الشخصيات بتفاصيلها وأحداثها المختلفة، إنما المهم هو انتقاء ما يفيد الموقف ويناسب السياق، كما يفيد أن الأحداث ليست موزعة توزيعاً عشوائياً، وإنما هي موزعة بدقة وروعة وإعجاز.

وتجلى خاصية الانتقاء كذلك في بلاغة حذف التفاصيل، التي يستشفها المتلقي من السياق في بعض المواضع للدلالة على المعنى بأبلغ عبارة وأكثرها تأثيراً، كما نجد مثلاً في آيتي (طه: ٦٩-٧٠): ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ لَلْقَفِّ مَا صَنَعُوا ۗ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَلَ ۗ﴾ ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُبْحَانًا مَا لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا لَمِنَ الْهَادِينَ﴾، فقد حذف من بين

الآيتين تفاصيل كثيرة، أي: فألقى موسى عصاه يمينه فتلقفت جبال السحرة، فانبهر السحرة ولم يجدوا بداً من التسليم بصدق موسى، عليه السلام، فسجدوا.

وكما يختار القرآن الكريم من الأحداث ما يلائم السياق والموقف، الذي يريد إبلاغه للمتلقي، فإنه يمتاز أيضاً بانتقاء الكلمات المناسبة للمعنى، أي يتميز بالدقة في اختيار الكلمات، التي تحمل دلالات عميقة، وتعبر عن أحداث كثيرة بأقل عدد من الكلمات، كما في كلمة (تذودان) مثلاً الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّكَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص: ٢٣).

فهذه الكلمة بينت أن الفتاتين كانتا تحبسان أغنامهما وتمنعانها من الاختلاط بأغنام الآخرين، حتى لا يدعي أحدهم أنها له، وهذا يعني أنهما كانتا تنتظران - لضعفهما - حتى يخف الزحام فتسقيان أغنامهما، وأن أغنامهما كانت تريد الذهاب إلى مورد الماء مع سائر الماشية فكانتا تمنعانها، وهذه الكلمة ساهمت في تخيلنا للموقف وما فيه من حركة، والدوافع النفسية، التي تدفعهما للتصرف بهذه الطريقة، كل ذلك لخصه القرآن الكريم في كلمة واحدة هي ﴿تَذُودَانِ﴾.

ولاشك أن هذه الكلمة تكشف عن نفسية هؤلاء القوم، الذين كان يسيطر عليهم حب الذات، والحرص على مصالحهم الخاصة بهم، دون الالتفات إلى حاجة الآخرين للماء، وعدم مراعاتهم لضعف هاتين الفتاتين وكبر سن والدهما، ولذلك لفت هذا المشهد انتباه موسى، عليه السلام، وأثار تعجبه، ولما عرف القصة سقى لهما، وهذا يدل على حسن خلقه.

ونجد أيضاً في قوله تعالى في قصة موسى، عليه السلام: ﴿فَرَجَّ مِنْهَا خَافِيًا يَتَرَقَّبُ﴾ فلفظة: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ تخفي سرداً كثيفاً وتقنية بلاغية تعبر عن الانتقاء، وهي تقنية الإضمار، حيث تلخص خوف موسى وقلقه، وحركاته، وهو في التفات مستمر، يميناً وشمالاً، ويمشي بِحُطَى يشوبها كثير من الخذر.

ومما يثبت أن القرآن الكريم يميل إلى اختيار وانتقاء الألفاظ القليلة ذات المعاني والدلالات الكثيرة، أننا نجد قصة قصيرة بليغة مركزة على قوم عاد في الآيات (١٨-٢٠) من سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَيُنذِرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ تَخَلٍ مُّتَعَرِّجٍ ﴿٢٠﴾، فهذه الآيات القصيرة تحدثنا عن تكذيب قوم عاد، والعذاب الذي حل بهم نتيجة لتكذيبهم والذي لم يبق على أحد، جزاءً وفاقاً، الأمر الذي يؤكد أن خاصية الانتقاء تكشف عن أسرار كثيرة في القصص القرآني.

٥ - هيمنة السارد على الشخصيات والأحداث:

إن السارد في القصة القرآنية هو الله سبحانه وتعالى، وهو حاضر في نسيج القصص، سواء بوصفه محركاً للأحداث، أم بوصفه فاعلاً فيها. وإذا كان المؤلف لا يظهر بصفته الاعتبارية في ثنايا قصصه، وإلا عد ذلك عيباً، وكان يختفي خلف أقنعة الرواة، سواء من الخلف أو بالمعية أو من الخارج، فإنه في القصة القرآنية حاضر بعلم كلي، فهو سبحانه وتعالى يعرف ما لا تعرفه الشخصيات، وإن كان في بعض الحالات يطلعها على بعض المعرفة عن طريق الوحي قبل وقوع الأحداث، مما يكسبها قوة المواجهة، ويجعلها مطمئنة عند حصول الأزمات.

كما أن السارد يتحكم في صيرورة الأحداث، ويصيرها بإرادته كما يشاء، وتتسلسل معظم الأحداث بطريقة منطقية، إذ يهيئ لها الأسباب الطبيعية، ولكن في بعض الحالات تنأزم الأحداث فتدخل القدرة الإلهية لتفك أزمته وتحل عقدها، كما هو الشأن، مثلاً، في قصة إبراهيم، عليه السلام، عندما قذفه النمرود في النار فنزل أمر الله: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩).

وقد يأتي السرد برؤية محايدة، حيث يتم تنظيم الحكيم من موقع خارجي، و«تترك شخصيات السرد تتحدث بأصواتها دون تدخل، مما يعطي انطباعاً

للمتلقي بصدق ما يتلقى، حين يجد نفسه مشاركاً في الحكيم بوصفه مشاهداً حاضراً ومستمعاً لما يجري من حوار. تتجلى هذه الرؤية في وظيفة الدعوة، من قصص الأنبياء، وما يصاحبها من جدل التكذيب، حيث الحاجة إلى معرفة التفاصيل المتلبسة بالدعوة، كعلاقة الرسول بقومه، ومنهجه في دعوتهم، وهدفه منها.

وكل هذا يجري أمام عيني المتلقي من خلال الرؤية المحايدة، فرى بموضوعية، وعليه من ثم أن يحكم بعقله على ما رأى، وأن يجنب كل حكم للهوى، أو للعادة»^(١).

ورغم الحياد في بعض القصص، فإن هيمنة السارد الكلية، تتخلل السرد؛ لأن القرآن الكريم هو كتاب دعوة، تتجلى فيه الفاعلية الدالة على عظمة الخالق وقدرته في تحريك الأحداث والشخصيات والمصائر.

(١) محمد مشرف يوسف خضر، خصائص السرد القصصي في القرآن، مجلة حراء، عدد ٦.

المبحث الثاني مقاصد التلقي

١- التزكية والتدبير:

من أهم مقاصد تلقي القصص القرآني التزكية والتدبير. ويشتركان كلاهما في تربية النفس على الطاعات، وتنزيل الأحكام والقيم على الواقع المعيش.

أ- التزكية:

أصل التزكية في اللغة من زكا يزكو، وتجمع بين أربعة معان:

- معنى النماء والزيادة، يقال زكا الزرع أي نما وزاد.

- ومعنى التطهر، ومنه قوله تعالى: ﴿سَخَذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣) أي تنمو وتتطهر بها، وقوله: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ

يُزَكِّيكَ﴾ (عبس: ٣)، أي يتطهر من الشرك والذنوب.. والزكاة زكاة المال، وهو

تطهيره، والفعل منه زكى يزكي تزكية إذا أدى عن ماله زكاته، و«الزكاة ما أخرجته

من مالك لتطهيره به، وقوله: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ قالوا: تطهرهم بها»^(١).

(١) انظر: لسان العرب، المجلد الرابع عشر، ص ٣٥٨.

- ومعنى الصلاح، يقال رجل زكي أي صالح، ومنه قوله تعالى: ﴿مَخْتَارًا
بَيْنَهُ زَكَاةٌ وَأَقْرَبٌ رُحْمًا﴾ (الكهف: ٨١)، أي عملاً صالحاً، قال الفراء: زكاة
أي صلاحاً، قال أبو زيد النحوي في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي يصلح^(١).
وقد جمعت الزكاة هذه المدلولات الثلاثة؛ «وقيل لما يخرج من المال
للمسلمين من حقوقهم زكاة؛ لأنه تطهير للمال وتثمين له، و إصلاح، ونماء».

- ومعنى المدح، يقال زكاه الله وزكى نفسه تزكية إذا مدحها وأثنى عليها،
يقول تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النجم: ٣٢)، أي لا تمدحوها.

وقد اعتبر عدد من العلماء والباحثين أن التزكية ضرب من ضروب التربية،
يستهدف تنمية الغرائز والملكات والقدرات الصالحة في المتلقين لها، وتنقيتهم
وتطهيرهم من خبائث الاعتقادات والأخلاق والعادات والأعمال والأقوال،
حتى تكون الأمة قوية نافذة في أمورها، متحررة من جميع الانحرافات، التي تزيغ
بها عن الطريق^(٢).

وإذا تفحصنا ورود لفظها في القرآن الكريم، نجد أنها مقصد مهم من
مقاصد الوحي، يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُورَيْنَا أُمَّةً
مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

(١) لسان العرب، السابق.

(٢) انظر: محمد سليمان الأشقر، أفعال الرسول ودلالاتها على الأحكام الشرعية،

وَأَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: ١٢٨-١٢٩﴾، فقد اقترن دعاء إبراهيم، عليه السلام، لربه سبحانه، بأن يجعل من ذريته ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً﴾ وأن يبعث في هذه الأمة ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ لتحقيق الهدف من تلقي الوحي، وهو تبليغهم رسالة الله وتعليمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، أي يرتقي بهم نحو درجات النماء والتطهر والصلاح ومستويات التكريم الإلهي.

وقد استجاب سبحانه لنبيه إبراهيم، عليه السلام، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَئِي ضَلُّوا مُبِينًا﴾ (آل عمران: ١٦٤). وقال في آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَئِي ضَلُّوا مُبِينًا﴾ (الجمعة: ٢).

وإذا كانت الآيات السابقة تقدم معالم لكيفية تلقي الأمة للوحي وهي: تلاوة القرآن وتحقيق فاعلية القراءة، والانفتاح على ما فيه من علم وهدى وحكمة، وتركبة النفس بالبناء والتطهر والتربية المستمرة، فإن هناك آيات قدمت مادة قصصية، تركز على تحقيق تركبة الفرد، بتربيته وبناء شخصيته، وتربيته وجدانه، من ذلك قوله تعالى في سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّمُ يَتَّبِعُ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾﴾، يعاتب الله عز وجل في هذه الآيات نبيه الكريم لما عبس في وجه رجل مؤمن يريد أن يستزيد منه ويتعلم.

وقد افتتح تعالى سرده «بفعلين متحملين لضمير لا معاد له في الكلام» وفي ذلك «تشويق لما سيورد بعدهما، والفعالان يشعران بأن المحكي حادث عظيم»^(١)، وأنه يشير إلى إمكانية تحقيق تزكية الفرد بدخوله إلى دائرة الإيمان، فقد يكون تزكي الرجل مرجوياً، إذا أقبل عليه رسول الله ﷺ بالإرشاد، وزاد الإيمان رسوخاً في نفسه، وفعل خيرات كثيرة مما يرشده إليها، ويزيد تزكيه، فالمراد بـ (يتزكى): تزكية زائدة على تزكية الإيمان بالتحلي بفصائل شرائعه ومكارم أخلاقه مما يفيضه هديه عليه^(٢)، لتعود التزكية على النفس ذاتها ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ (فاطر: ١٨).

كما أن قصة ثمود، جاءت في سياق أطول قسم في القرآن الكريم يتعلق بتزكية النفس، وذلك في سورة الشمس، يهدد فيها الله عز وجل المشركين، الذين كذبوا رسول الله ﷺ طغياناً، كما كذبت ثمود رسولها طغياناً وكفراً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقْنَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَا ۝ فَأَلَمَّهَا جُؤْرَهَا وَنَقَّوْنَهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْنَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْنَا ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۝ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيِيهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّيْنَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا﴾ (الشمس: ١-١٥)،

(١) التحرير والتنوير، ١٠٣/٣١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، السابق، ص ١٠٦.

كما يذكر بفلاح من زكى نفسه واتبع ما ألهمه الله من التقوى،
وبخية من اختار الفجور بعد أن ألهم التمييز بين الأمرين، بالإدراك
والإرشاد الإلهي^(١).

ونلاحظ قبل تقديم القصة قسمه تعالى بعدد من مخلوقاته، من الأشياء
والأحداث والظواهر، حيث أقسم بنفسه على شيء عظيم، وجاء جواب
القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾. أي لا يفلح
إلا من تحقق بالتزكية، وهي البعد عما يُغضب الله من الذنوب والآثام،
والارتقاء بالنفس في مدارج العبادات والطاعات والأعمال الصالحة. وفي المقابل
يخسر من حال بينه وبين نفسه من فعل الصالحات، وحرمانها من
الخيرات الربانية.

والقصة القرآنية بمحملها تركز على التزكية والسمو بالأخلاق وتقوم
السلوك وإصلاح النفوس، من خلال تعليم فضائل الأخلاق، والقدوة الحسنة،
كقصة يوسف، عليه السلام، في صبره وعفته وتسامحه، وقصة أيوب، عليه
السلام، في صبره، وغير ذلك. والنهي عن الفواحش والأخلاق الذميمة،
كتصوير شناعة ما كان عليه قوم لوط، عليه السلام، وما كان عليه أهل
مدین، وغيرهم.

(١) التحرير والتنوير، ٣١/٣٧٣.

ب- التدبير:

إن تركية النفس لن تتحقق إلا إذا اقترنت بالتدبير، وحرر الإنسان قلبه من الأمراض، التي تصيبه. وهذا ما يوجه إليه القرآن الكريم حين يذكر أن القلب، الذي هو موطن القدرات العقلية يعي ويغفل، ويطمئن وينكر، ويؤمن ويكفر. والتدبير مأخوذ من دبر وهو آخر الشيء. ودبر وتدبره: نظر في عاقبته، وعرف الأمر تدبراً أي بآخره، وفلان ما يدري قبال الأمر من دباره، أي أوله من آخره. ويقال: إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبر هُدي لوجهة أمره، أي لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره. والتدبير: أن يتدبر الرجل أمره ويدبره أي ينظر في عواقبه^(١). وهو قريب من التفكير، إلا أن التفكير تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبير تصرفه في العواقب^(٢).

وقد ورد فعل التدبير في القرآن الكريم بمعنى التأمل في معاني القرآن وآياته، والتفكير والتبصر بما فيه لمعرفة التأويلات الصحيحة والدلالات المستتبطة^(٣)، وجاء في كل الآيات بصيغة المضارع، «فلا يمكن تصور فعل التدبير إلا في سياق الفعل المتواصل»^(٤).

(١) لسان العرب، مادة دبر، المجلد ٤، ص ٢٧٣.

(٢) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ص ٤٣.

(٣) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد ٥، ص ٣٠٠؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، المجلد ٥، ص ١٣٧.

(٤) محمد إقبال عروي، التدبير في القرآن الكريم بين الواجب الإلهي والحق الإنساني، دعوة الحق، عدد ٣٤٣، مايو ١٩٩٩م، ص ٦٨.

ففي قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ (النساء: ٨٢)، و﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ أمر على قلوب أفعالها ﴿ (محمد: ٢٤) جاء مسنداً إلى الجمع المذكر السالم، وفي قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَذَبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٦٨)، و﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبِينًا لِيَذَبَرُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (ص: ٢٩)، جاء مجزوماً بأداة الجزم.

واستناداً إلى معناه في القرآن الكريم نجد أنه لا يقتصر على التأمل والتفكير، مع أنهما سلوكان مطلوبان بداية، وإنما «يتعين ممارسة التدبر عبر الالتفات إلى مآله وعاقبته، إذ لا يتعلق الأمر مع القرآن بمجرد التفكير والتأمل، بل إنهما يعتبران وسيلة إلى غاية كبرى، وهي التذكر والعظة والاعتبار والاستجابة لنداء الله»^(١).

وقد جعل الله تعالى القرآن ميسراً، بحيث لا يحتاج إلى وسائط بينه وبين متلقيه من حيث التفاعل الوجداني والعقلي. فعلى الرغم من أن استنباط الأحكام النظرية والعملية، واستخلاص المفاهيم والتصورات، والمبادئ والقيم يحتاج إلى علماء لهم شروط معينة في الفهم والتأويل، إلا أن كل إنسان يمكن أن يضع القرآن الكريم موضع تدبر وتفكير وتأمل.

فالتدبر هو ذلك الفهم والتعايش مع كل الأفكار والصور والأحكام والقيم الموجودة فيه، وهو الوسيلة الفعالة، التي تمكن من استخلاص الجهاز المفاهيمي والقيمي، الذي يصوغ مقومات الذات، ويثبت الهوية، ويرتقي بالشخصية، وقيم الحضارة.

(١) التذبر في القرآن الكريم بين الواجب الإلهي والحق الإنساني، المرجع السابق.

ولما كانت القصص القرآني جزءاً من القرآن الكريم، فإنها في تقديمها للنماذج البشرية من الأمم السابقة، ورسمها لأحوالهم ومواقفهم، تهدف أيضاً إلى تديربها، من أجل أن «يتجنب المسلمون الوقوع في شرك الأسباب، التي تسوق إلى أخطاء تلك الأمم. وإذا أخذنا قصة موسى مع فرعون مثلاً فإننا نجدها، كما يقول الشيخ رضا، ذكرت في القرآن ١٢٠ مرة، ولم يكن ذكرها للتسلية، وإنما ذكرت حتى لا يتحول الخلفاء إلى فراعنة، وحتى تعرف الشعوب أيضاً أن عبادة غير الله جريمة، وأن الرضى بالذل ستكون عقابه الهوان في الدنيا وفي الآخرة»^(١).

ومن أبرز ما يمكن أن يتدبره المتلقي من القصص القرآني مثلاً تقويم الخلق والسلوك، الفردي والجماعي، ففي قصة الخنتين نجد نوعين من أنواع السلوك البشري:

الأول هو الظالم لنفسه بالكبر والظن، الذي يقارن بين ما يملكه هو وما يملك غيره، فيجد أن ما عنده عظيم ويحتقر ما عند غيره، لينعكس ذلك في فعله وقوله، يقول تعالى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتُنَّهَا بِتِنِّيلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا لَجِنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ نَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن يُبَدَّ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ (الكهف: ٣٢-٣٦).

(١) التكدير في القرآن الكريم، المرجع السابق.

وقد استخدم الله عز وجل، أسلوب المزاوجة بين الوصف والسرود والحوار، الأمر الذي يثير المتلقي، ويستحوذ على اهتمامه.

وفي المقابل، نجد شخصية أخرى قائمة على التضاد مع الشخصية الأولى، محورها الإيمان والاستسلام لله عز وجل، وجاءت الآيات مؤيدة ذلك من خلال الاستفهام الاستكاري: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاءً غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَكَ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأَحِيطْ بِشَرِّهِ فَاصْبِحْ يَقْبَلُ كَفْبًا عَلَىٰ مَا أَتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لِمَ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ (الكهف: ٣٧-٤٤).

وفلسفة الإيمان لدى الشخصية الثانية متكنة على الثقة بالله وعدم الشرك به، وعلى رؤية إيمانية ينقلها للكافر، فلو تحول منهجه الديني إلى منهج عقدي سليم، لا يرى في الدنيا مكسباً، وإنما معبراً، فإن معيار النظر إلى متاع الدنيا يختلف.

ومن أبرز الأمثلة، التي تبرز مقصد التدبر والتركية، أنموذج طلب العلم في قصة موسى، عليه السلام، والرجل الصالح، فموسى، عليه السلام، في سورة الكهف، يخرج في رحلة من أجل طلب العلم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ

لَا أَنْبِرُ حَقَّقَ أَبْلَغَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضَى حُقْبًا ﴿٦٠﴾، وبعد سلسلة من الأحداث يلتقي موسى، عليه السلام، مع العبد الصالح: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿٦٥﴾، ويطلب أن يرافقه ليتعلم منه: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿٦٦﴾، لكن العبد الصالح يشترط عليه شروطاً: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَأْذِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠-٦٧﴾.

وهنا يمكن أن نتدبر مجموعة من الأشياء، منها الصبر على التعلم، مع تعليقه بالمشيئة، والامتنال والطاعة للمعلم، وعدم التعجل في السؤال حتى ينتهي المعلم. وتمضي القصة في تسلسل محكم تروي الأحداث، التي وقعت في تلك الرحلة، تعلم المتلقي الحرص على العلم في كل مراحل الحياة، فمهما وصل الإنسان إلى درجات العلم والمعرفة، عليه أن يستزيد منهما.

والأمثلة كثيرة ومتنوعة من القصص القرآني، التي نستشف منها مقصد التركيزية والتدبير، ولعل تشخيص عناصر الطبيعة وظواهرها، ومخاطبتها كأنها كائنات تحس وتعقل، تحقق هذا المقصد، خاصة حين يلمس تلك الصلة الروحية بين الإنسان والمخلوقات الطبيعية، التي تعد من عجائب الله تعالى، سواء كانت في الأرض أم في السماء، لأن مثل هذه الصور والصلوات من شأنها أن تعمق وعي الإنسان بهذا الكون، وتقوده إلى التدبير والتأمل.

٢ - مقصد الصدق والحق:

إن الحقيقة، التي لا ريب فيها أن القصة في القرآن الكريم بنيت بناءً محكماً على الحقائق الثابتة الخالصة من زخرف القول وباطله ونسج الخيال، وأُسست على الحق والصدق والواقع، ولم يكن للخيال أو الوهم أو المبالغة مدخل إليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَى اللَّهِ لَهَوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦٢). وهي تصور الحقائق بصدق وواقعية ﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلٌ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء: ١٠٥)، لذا نجد أن من أهم المقاصد، التي يتلقاها متدبر القصص القرآني مقصد الحق والصدق، وهما معاً يفضيان إلى دلالات مشتركة.

أ - الصدق:

ترددت لفظة الصدق في القرآن الكريم صفة لحديث الله عز وجل ولحديث رسوله ﷺ في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء: ١٢٢)، وفي قوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٢).

ومن أبرز صفات الأنبياء الصدق، لذا وصفهم الله عز وجل بصيغة المبالغة (الصدِّيق) في مثل قوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ (مرم: ٤١). ولعظم شأن الصدق؛ فقد أمر الله -تعالى- خاتم النبيين وأفضل المرسلين أن يدعو بهذا الدعاء: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٠).

وعن منزلة الصدق قال ابن القيم: «وهي منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم، الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين المهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران. وهو سيف الله في أرضه، الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا حاجة باطلاً إلا أزداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، وتحك الأحوال، والحامل على افتتاح الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين. ودرجته تالية لدرجة النبوة، التي هي أرفع درجات العالمين»^(١)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿٥٤﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٣-٢٤).

ب- الحق:

حق الشيء في اللغة إذا أحكم وصح وثبت وطابق الواقع الموضوعي له؛ وحققت الأمر وأحققته إذا كنت على بينة منه، ومنه سُمي يوم القيامة حاقّة؛ لأنّها ساعة لا ريب فيها يُجمع فيها الخلائق للحساب^(٢).

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، مكتبة دار الصفا، المجلد ٢، ص ٢٤.

(٢) انظر: لسان العرب، المجلد العاشر، ٥٤/٤٩.

ويستعمل الله عزَّ وجل مفردات (حق، حَقَّت) كثيراً في القرآن
بالمعنى المذكور.

والحق من أسماء الله الحسنى؛ لأن وجوده ثابت لا مرية فيه، وأفعاله صدق
لا معقب لها ولا مستدرِك، ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَدَدَ الْحَقِّي إِلَّا
الضَّلَالُ فَإِنَّ تَصْرُفُونَ﴾ (يونس: ٣٢)، ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ
إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَمْرٌ الْحَسِينِ﴾ (الأنعام: ٦٢)، كما وصف الله تعالى
كتابه بالحق في قوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (فاطر: ٣١).

ولفظه الحق من الألفاظ المحورية، التي لها دلالات واسعة وحضور بارز في
عديد من الآيات القرآنية، تتصل بتبيان مفاهيم الإيمان وإثبات أحكام الإسلام
وقضاياه وقيمه، وتؤكد أن القرآن الكريم مصدر الحق ومنبعه، ولا يستحق
الوصف بالحق على وجه الكمال إلا كتاب الله تعالى.

والحق نقيض الباطل، ومن ثم كان الحق صدقاً باعتباره نقيضاً للكذب.
وفضلاً عن دلالة الحق على الصدق فهو يدل أيضاً على العدل،
مما يعني أن الباطل يدل على الظلم باعتبار علاقة التناقض، التي تربطه
بالحق. لذا كان سرده عز وجل لقصص الأمم السابقة ومواقفهم من رسلهم
يطابق الحقيقة والصدق، يقول تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ
مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠)، فهي آية جاءت في أعقاب سرد

لواقع لا ريب فيه، حيث ذكر في السورة قصص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى مع أمهم، التي ظهرت في عصور متعاقبة، لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وكل المتلقين، الذين يقفون موقفاً مشابهاً في كل مجال من مجالات الحياة.

وفي قوله تعالى: ﴿لَمَّا نَفَسْ عَلَىٰ نَبَأِهِمْ بِالْحَقِّ﴾ (الكهف: ١٣) ما ينص بصراحة وحسم أن القصة من واقع التاريخ الحق، تقوم على حقائق، فضلاً عن كون ذلك تأكيداً على أنها واسطة يانية تبليغية لناموس سماوي، غايته تجذير العقيدة وتوطيد نظام حياة متكامل للإنسانية، وتغيير ما بالنفوس من جهالة وشرك وعبودية لغير الله، نزعت منزعاً واقعياً فصدرت عن مرجعيات تاريخية وحقائق إنسانية، ارتبطت بسير الأنبياء والرسول، عليهم السلام، في أزمنة غابرة، وبأخبارهم وصراعاتهم من أجل رسالات الله.

من هنا كانت قصصهم القرآنية أخباراً لا يمكن إلا أن تنسجم من حيث الأصالة والصدق مع روح الكتاب المبين، الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يصدر عن وهم.

وكان الصدق التاريخي معياراً لحرص القرآن على إثباته وتأكيده، المرة تلو المرة^(١)، كي ينساب في حاضر المتلقي ويجيب عن واقعه وإشكالاته. ومما يجلي

(١) سليمان عشريني، الخطاب القرآني (الجزائر: ١٩٩٨م) ص ٦٧.

مقصد الحق والصدق بوضوح، نسبة عملية القصص لله عز وجل، فهو المرسل السارد والفاعل.

ففي الآية السابقة، مثلاً، نجد أنها وردت في مستهل حديثه سبحانه عن أصحاب الكهف، للتأكيد على واقعية القصة، رغم أحداثها المخارقة، التي قد لا يصدقها العقل، وعبر عنها بنون العظمة والجلال ليزيدها وضوحاً أكثر على مستوى التوكيد المعنوي، ويعطيها مصداقية تامة لواقعتها في سرد الأحداث.

وهكذا الأمر في كل القصص القرآني، يقول تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠)، فما يقصه السارد الحق، يتطلب مثلياً يمتلك الأدوات الإجرائية لرؤية واستجلاء الحق والموعظة والذكرى، من أجل تفعيلها في ممارساته وسلوكياته، وينفعل بما يفكره ووجدانه. فهو وإن لم يحضر أحداثها وزمانها، إلا أنها تنساب في واقعه حية، بشكل مباشر، خاصة حين يخاطبه تعالى عبر خطابه لرسول الله ﷺ، في مثل قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِمَحَابِبِ الْفَرِيقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (القصص: ٤٤).

٣- مقصد الحسن والجمال:

أ- الحسن:

الحسن يأتي بمعنى الجميل، كما يأتي بمعنى الجيد النافع، وهو ضد القبح ونقيضه^(١). والمرأة حسناء، ولذلك يصف الله تعالى جمالها بالحسن، سواء المادي كما في قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْبَغَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ (الأحزاب: ٥٢)، في إشارة إلى جمال المرأة، الذي جُبلت عليه، المرتبط بأنوثتها، أو المعنوي المتعلق بجمالها المعنوي المرتبط في التصور الإسلامي بالإحسان في العبادة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كُنْتَنَ تَرُدُّنَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالَّذَارُ الْأَخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٩).

وقد تعدد ذكر هذه اللفظة في القرآن الكريم بما يفيد أنها ترتبط بمفهوم الجمال الموجود في الكون، فعلى امتداد الآيات الكريمة، التي تضمنت لفظة «الحسن»، يجلب المتلقي نفسه أمام مجموعة من العلاقات، تبين بجلاء ملامح الجمال والحسن، ابتداء بالإحسان إلى الوالدين والبر بهما، مروراً بالإحسان إلى النفس وإلى الآخر مهما كان، والدفع بالتي هي أحسن في كل المواقف والحالات.

(١) انظر لسان العرب، المجلد ١٣، ص ١١٤.

كما تكررت صفات الحسن في القول والقرض والموعظة والأسوة والجدال وغيرها من الأفعال، التي تتجمل بالحسن. يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩)، فالصحبة الموصوفة بالحسن تفيد قمة الجمال في العلاقات الإنسانية، كما تفيد قمة الإحسان والرفقة الطيبة، يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، ليس مع الآخر فقط، وإنما مع النفس أيضاً، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْتِيبِ﴾ (الزمر: ١٨).

فمثل هذه الأمثلة القرآنية، منظومة من المواقف والصور والمشاهد والتطبيقات، التي يسكنها الجمال من كل ناحية، تزداد مع القص القرآني تألقاً، وتأخذ بالأبواب كلما تطور التصوير وتنوعت المشاهد، طبيعية كانت أم إنسانية. فحُسن العرض والسرِد والدلالة من أسرار القصص القرآني، لعل ذلك راجع إلى بنيتِه اللغوية والفنية، أو إلى اشتماله على التناسق والتناسب مع ما سبقه وما لحقه من السور الكريمة، والتناسق بين فاتحته وخاتمته، فضلاً عن التناسق والتناسب مع السياق الخارجي، الذي نزل في ظلاله، والتناسق الإيقاعي والنظمي، أو إلى تضمينه الحكمة الفنية في بناء الشخصيات وتطورها، وتناسق وتناسب كذلك مع الأهداف العامة والخاصة

للسورة نفسها وسور القرآن الكريم عامة، أو إلى المعاني المباشرة والإيحاءات الدلالية، التي تأخذ بيد المتلقي نحو وجهة اتخاذ القرار.. إنه كل ذلك وأكثر مما نكتشفه مع كل قراءة متأنية للقصص القرآني.

ب- الجمال:

الجمال مصدر جميل والفعل جعل.. قال ابن الأثير: والجمال يقع على الصور والمعاني، ومنه الحديث: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» (أخرجه الحاكم في المستدرک)، أي حسن الأفعال، كامل الأوصاف^(١).

وقد وردت لفظة الجمال في القرآن الكريم في أكثر من موضع، منها قوله تعالى يصف الصبر: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا﴾ (المعارج: ٥)، ﴿وَجَاءَهُ وَعَلَى قَيْصِيَّةٍ يَدْمِرُ كَذِبًا قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨)، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ٨٣).

ويصف الصفح في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصْفِحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥).

(١) انظر: لسان العرب، المجلد ١١، ص ١٢٧.

ومنها قوله تعالى ناعثاً المحر والسراح^(١) بالجمال: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِزْهُمْ هَزْبًا﴾ (الزُّمَل: ١٠)، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتن تُرِيدنَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَرِيدْتَهَا فَعَالِيَنَ أَمِيعَتِكُنَّ وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَامًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٨)، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ نَكَحْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِن عِدْوَةٍ تَعُدُّوهنَّ إِذْ فَمِعْتَهُنَّ وَسَرَّحْتَهُنَّ سَرَامًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٤٩).

كما وردت في وصف الإبل في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٦).

ودعوة الله تعالى الإنسان بالتمسك بدلالات الجمال في مواطن قد يكون فيها أذى وظلم يشير إلى أن الجمال قيمة أخلاقية وسلوكية. فهو مطلب أساس لتيسير حياته، يقول القرطبي في معرض حديثه عن تفسير الآية السابقة: «قال علماءنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخلق، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال؛

فأما جمال الخلق فهو أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائماً، فتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر؛
وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات الحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد؛

(١) هو الفراق كما ورد عند المفسرين.

وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لطلب
المنافع فيهم وصرف الشر عنهم.

وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئي بالأبصار موافق
للبصائر. ومن جملها كثرتها وقول الناس إذا رأوها: هذه نعم فلان {..}؛
ولأنها إذا راحت توفر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها؛ لأنها إذ ذاك
أعظم ما تكون أسنمة وضروعاً {..} ولهذا المعنى قدم الرواح على السراح
لتكامل درها وسرور النفس بها إذ ذاك، والله أعلم^(١).

فالإحساس بالجمال وتوطينه في النفس الإنسانية، يجعل السلوك مشرب
بترشيد تصرفات الإنسان وانفعالاته ومواقفه في جميع حالاته، لتتحول المشاعر
السلبية إلى أخرى إيجابية، تمنح طاقات البناء وليس الهدم. فيتحول الحجر
والسراح والصرير وغيرها من المواقف الانفعالية، وردات الفعل الصادرة عن
الذات، التي تشعر بالظلم والأذى، تتحول بالسلوك الجمالي إلى مواقف للصلح
والتقويم والاستيعاب والعفو.

وتضمنين القصة القرآنية مثل هذه الدلالات، تكشف عن وحدة القيم
بينها وبين باقي أجزاء القرآن الكريم. فدعوة نبي الله يعقوب، عليه السلام،
الذي ابتلي بفقدان فلذة كبده، وأعز أبنائه إلى قلبه، ليس بالتحلي
بالصرير فقط، وإنما بالصرير الموصوف بالجمال ليصبح وسيلة تربوية مهمة في
التأثير على المتلقي، الذي قد يتليه الله في أي موقع أو مجال من مواقع

(١) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء العاشر.

وبحالات الحياة، فيجد فيه ما يخفف به من وطأة الأحزان الجاثمة على صدره، سواء في السلوك والممارسات في بناء العلاقات، أم بالتعرف والتقرب من عظمة الله وجلاله وملكوته.

والحضور القوي للآيات الداعية للتأمل في آيات الله باستحضار مفهوم الجمال تسعف المتلقي على تذوق ما في المخلوقات من روعة وإبداع، للوصول إلى معرفة قدرة الله وعظمته، إذ الكون بكل ما فيه من تناسق وروعة وجمال وحسن يشكل لوحات فنية رائعة، تأخذ بيد الإنسان لمعرفة خالقه.

وهناك آية صريحة، تعلن أن القصص القرآني أحسن القصص، وحسنها متناسق ضمن منظومة الوحي، وذلك في قوله تعالى: ﴿تَحَنَّنْ نَفْسَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (يوسف: ٣)، ووردت الآية في مستهل سورة يوسف، وهي من السور المكية، التي فيها من الأناج والرحمة ما يملأ قارئها طمأنينة ورضا، وفيها من الابتلاء تلو الآخر، الذي يعقبه الفرج ما يجعل المتلقي يأمل في رحمة الله.

وقد نزلت في العام الذي توفي فيه أبو طالب عم رسول الله ﷺ الذي كان يحميه، وهو العام الذي توفيت فيه زوجته خديجة، التي وقفت إلى جانبه وواسته. وقد حزن عليهما ﷺ، فحاءت هذه السورة لتذكره بجمال الفرج بعد الشدة وبحسن الفرج بعد الحزن، وضمن السورة قصة يوسف، عليه السلام، وما حصل له من الابتلاءات.

والآية جاءت بوصفها توطئة لقصة يوسف، عليه السلام،
أفضلية وحُسن القصص في القرآن، لأنها منتقاة من مجموع قصص
كثيرة منتشرة في الفضاء الزماني والمكاني للتاريخ البشري، لتخضع للأهداف
والأغراض الربانية، التي تقيس ما تعرضه القصص القرآني بمعايير الحسن
والكمال والجلال والجمال.

ولفظة ﴿ أَحْسَنَ ﴾ من صيغ أفعال التفضيل، الأمر الذي يجعلها وصفاً
للقصص القرآني، مقارنة مع ما يعرض خارج القرآن، ينتمي إلى الجنس الأدبي
نفسه. فهذا إجماع أن هناك قصصاً إنسانية حسنة، لكن ما يُعرض في القرآن
الكرم أحسن وأفضل وأجمل، خاصة أن عملية الانتقاء في هذه القصص
لا يتم على مستوى الأحداث، وإنما على مستوى الشخصيات الإنسانية،
من أجل تحقيق مبدأ ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾، التي ترتقي بالملتقي إلى الإيمان
بالحق، وتذوق الجمال الكامن فيها، وإنزال القيم المبتوثة في أعماقها على
سلوكه وممارساته وعلاقاته.

الفصل الثاني

بلاغة القص وجمالية تلقيه

المبحث الأول

جمالية الانسجام والتناسب

يعد مصطلح «الانسجام» أحد المصطلحات المحورية، التي تندرج في مجال لسانيات النص^(١)، الذي يبحث في تماسك النصوص وتعالقها، ويدخل فيه الترابط الموضوعي للنص، الذي يجعل من النص وحدة دلالية، ومن مظاهره أيضاً اشتغال النص على سيرورة واستمرارية وتطور واتجاه نحو غاية محددة، تضمن له التدرج والانتقال، وتنفي عنه الانتقال غير المسوغ^(٢).

فهو يسعى إلى تحليل البنى النصية واستكشاف العلاقات النسقية المفضية إلى اتساق النصوص وانسجامها والكشف عن أغراضها التداولية.

(١) تسعى لسانيات النص إلى تحليل البنى النصية واستكشاف العلاقات النسقية المفضية إلى اتساق النصوص وانسجامها والكشف عن أغراضها التداولية.

(٢) عبد الرحمن بودرع، انسجام النص القرآني وتماسك بنائه، ضمن كتاب بلاغة النص القرآني (منشورات مركز الدراسات القرآنية، ٢٠١٤م) ص ٩٧.

وقد تميز هذا العلم في العصر الحديث بتعدد مدارسه وظهور عديد من المصطلحات الخاصة به كالانسجام والاتساق والتماسك وغيرها، لكننا لا نعدم بعض الدراسات النقدية والبلاغية في تراثنا، التي اهتمت بالتحليل، الذي يتجاوز مجال الجملة إلى الوحدات النصية الكبرى، خاصة في الدراسات القرآنية. من ذلك ما قام به ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القرآن»، الذي حاول النظر في القرآن بنظرة شمولية، وتعرض لقضية انسجام النص القرآني؛ والباقلاني خاصة في كتابه «إعجاز القرآن»، الذي تناول فيه قضايا الفصل والوصل وعلاقة بدايات السور بنهاياتها، ودور مقدمة السورة في التماسك الكلي للسورة وترابط موضوعاتها وأجزائها.

ولعل الجرجاني من أبرز من عالج قضايا نصب في وحدة النص وتماسكه وتعالق وحداته، خاصة في كتابيه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز». بل هناك من المحدثين من يرى بأن لحازم القرطاجني السبق في الاهتمام بانسجام النص وتلاحمه وتحديدده لبعض المفاهيم النقدية كمفهوم النظام والتأليف والتلاؤم وغيرها.

وكان للمفسرين أيضاً إسهامات مهمة في هذا المجال، خاصة الترابط بين السور والآيات والمناسبة بينها. ويعد برهان الدين البقاعي في كتابه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» من أبرز المفسرين، الذين ذكروا مقصد السورة ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها وما بعدها من السور، كما اعتنى الإمام السيوطي في مصنفه «معترك الأقران في إعجاز القرآن» بذكر وجوه إعجاز

العلم بتناسب الآيات والسور. كما اهتم بذلك أيضاً بعض المفسرين المحدثين أمثال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، وسيد قطب في كتابه: «في ظلال القرآن»... وغيرهم.

والمناسبة في اللغة هي المشاكلة والمقاربة، يقال: فلان يناسب فلان، فهو نسيبه، أي قريبه^(١)؛ وفي الاصطلاح: جعل أجزاء الكلام بعضها أخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء^(٢).. والبحث في علم «المناسبة» هو بحث في انسجام النص.

وعلى العموم، فإن جمال القرآن الكريم في ذلك الانسجام والتناسب والتناسق، الذي يجمع بين أجزائه وسوره. وقد درس بعض المستشرقين القرآن الكريم، لكن أغلبهم ابتعد عن الإنصاف الموضوعية، واستخلصوا أن القرآن الكريم كتاب غير منسجم، ولا تتحقق فيه النصية^(٣).

إلا أن هناك من كان منصفاً، واحتفظ بالنظرة العلمية كالمستشرق الفرنسي «جاك بيرك» في كتابه «إعادة قراءة القرآن»، الذي رأى أن القرآن يعرف ترتيباً خفياً^(٤).

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نسب، المجلد ١، ص ٧٥٦.

(٢) انظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١/١٠٨.

(٣) نوال لخلف، الانسجام في القرآن الكريم، سورة النور أمودجاً، ص ١٢.

(٤) JACQUES BERQUE, RELIRE LE CORAN, ED ALBIN MICHEL: (٤)
PARIS:1993, P:20-21.

من هنا يمكن أن يمثل الانسجام بعداً مهماً في دراسة القصة القرآنية، لارتباطه بجوانب التناسب والتناسق في أمور كثيرة يكشفها المتلقي، وهو لا يمكن أن يكون مظهراً خطابياً واحداً من مظاهر خطابية أخرى في المستوى الدلالي بل هو مظهر خطابي متعدد الجوانب والأبعاد^(١).

وهناك عدد كبير من مظاهر الانسجام في القرآن الكريم، وسنكتفي بالإشارة إلى بعضها كتماسك البناء وتناسب الأجزاء، والمقابلة، واللف والنشر، والمقدمة والخاتمة، والزمن والفاصلة، وذلك من خلال أمودجين اثنين، أمودج سورة الكهف، لاحتوائها على مجموعة من القصص القصيرة، وسورة يوسف لاحتوائها على قصة طويلة.

١- سورة الكهف:

إن البناء، الذي تقوم عليه القصة القرآنية، بناء محكم، يخضع للغرض، الذي سيقته له، ضمن سياق السورة، التي وردت فيها. وبما أن طريقة التحليل الممكنة للوقوف على النظام، الذي يقوم عليه أي نص يقوم على اعتباره صنفاً قابلاً للتحليل إلى مكونات والتي بدورها تكون قابلة للتحليل إلى مكونات أصغر وهكذا^(٢)، فإن الوحدة الكبرى، التي تبني عليها سورة الكهف هي التركيز على العقيدة.

(١) انظر: محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، ص ٢٨.

(٢) انظر: علم أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، ١/٢٨.

فهي من السور، التي تضمنت مجموعة من القصص، ترتبط فيما بينها بوحدة الغرض، الذي هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر والقيم بميزان هذه العقيدة.

وهي مكية بالاتفاق، نزلت بعد سورة الغاشية وقبل سورة الشورى^(١)، وقد أجمع عدد من العلماء على أن تصحيح العقيدة ووضع منهج رباني للفكر والقيم هو الطابع العام، الذي تشتمل عليه السور المكية بصفة عامة.

وسياق الموضوعات الرئيسة في قصص سورة الكهف يقوم على تقرير حقائق العقيدة، ويرتبط بمجموعة من القضايا، التي عرضتها:

قصة أصحاب الكهف، تحكي عن فتية هربوا بدينهم، لينجوا من بطش السلطة الظالمة. وهم أنموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، والالتجاء إلى رحمة الله، هرباً بالعقيدة أن تُمس^(٢).

وقصة صاحب الجنتين تحكي عن رجل أنعم الله عليه، لكنه تجبر وطفى، ولم يحسن شكر النعمة، في مقابل الرجل المؤمن بالله، والمستصغر لزخرف الأرض.

وقصة موسى، عليه السلام، والرجل الصالح تحكي عن الفرق بين الحكمة الإنسانية العاجلة، والحكمة الكونية الآجلة.

(١) التحرير والتنوير، ٦/٢٤٢.

(٢) انظر: محمد الحسناوي، دراسة جمالية بيانية في أربع سور، الإسراء، الكهف، مريم، طه، ١ (دار عمار، ٢٠٠٦م) ص ٨٠.

أما قصة ذي القرنين، فهي تحكي عن الملك العظيم، الذي جمع بين الملك والقوة، وحكم بمنهج الله، وأرجع كل خير إلى رحمته تعالى وفضله عليه. وكل الموضوعات تصب في إطار قضية الفتنة، التي قد تصيب الإنسان، فتنة الدين، فتنة المال والولد، فتنة العلم، فتنة السلطة، وكيفية مواجهتها من خلال أمثال ونماذج حية، تنتقل بالمتلقي ليعيش أجواءها ومزلقها وتجنب الوقوع فيها.

وهذا حيط ناظم لمجموع القصص، يكشف عن الصراع الحاصل بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين المحيطين به. فإذا كان على بينة من دينه وإيمانه، فإن الصراع ينتقل من الداخل إلى الخارج، كما في قصة الفتية وذو القرنين والأحداث، التي وقعت لموسى، عليه السلام، والرجل الصالح، أما إذا كان مغتراً بنفسه ظالماً لها، فإن الصراع يتحول من الخارج إلى الداخل. وهو صراع يجلي حقيقة العقيدة وكيفية تصحيحها بمخاطبة المتلقي، سواء كان المتلقي الأول، الذي جاء الخطاب باسمه، وهو رسول الله ﷺ، أم كان مجموع المتلقين من أول نزول الوحي إلى ما شاء الله للبشرية أن تبقى.

لذلك نسمع في تقديم قصة أهل الكهف مخاطبة الله عز وجل لرسوله ﷺ بالصبر والتأسي بقوله: ﴿فَلَمَّا كَبُرَتْ بَنِيكَ أَنْ تَبْتَاعُوا أَنفُسَهُمْ لِبَاطِلٍ مِّمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٦)، ونسمع في ختامها التذكير بمشيئة الله ودعائه للهداية: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٥﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكَّرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ (٢٣-٢٤).

وفي بداية قصة صاحب الجنتين نسمع توجيه الله لرسوله وللمؤمنين بالصر في قوله تعالى: ﴿وَأَصِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِيَّةِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿٢٨﴾، ونستمع في ختامها إلى قوله تعالى بخطاب ضمني: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ﴿٤٤﴾، للتأكيد على حتمية الجزاء.

وفي بداية قصة موسى، عليه السلام، مع الرجل الصالح نستمع إلى قول موسى مؤكداً عزمه على الصبر في طلب العلم، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿٦٠﴾، وتختتم بحديث الرجل الصالح مقررًا استعجال الإنسان مهما بلغت درجات صلاحه ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿٨٢﴾.

وفي بداية قصة ذي القرنين يقول تعالى مخاطباً نبيه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنِّهُ ذِكْرًا﴾ ﴿٨٣﴾.

وفي ختام القصة نستمع إلى التقييم الرباني للأعمال وللقيم وللإنسان، يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ﴿٥٥﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿٥٦﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيْدُهُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿١٠٢-١٠٤﴾.

وبالإضافة إلى وحدة الخطاب الموجه إلى رسول الله ﷺ الناظم لبدايات القصص ونهاياتها، نجد تناسباً بينها وبين بداية السورة ونهايتها، فقوله تعالى

مركزاً على ذكر الوحي القيم المنزل على نبيه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ
الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢-١﴾
منسجم مع خاتمها، التي يطلب فيها من نبيه، عليه السلام، مخاطبة
قومه للتأكيد عليهم أن الوحي من عند الله، وأنه لا عاصم إلا توحيد الله
والعمل الصالح.

وهذا الانسجام الناظم لوحدة الخطاب، نجد فيه تلك البراعة فيما يعرف
في البلاغة بالاستهلال وحسن التخلص، فهما لا تقحمان المتلقي في الموضوع
مباشرة، وإنما تحضره نفسياً لتلقي أحداثها، وما يمكن أن تتركه فيه من آثار في
عقله ووجدانه.

كما رأينا أن بداية كل قصة تفتتح بصيغ مختلفة يوحد بينها الخطاب
المتوجه نحو المتلقي الأول لها وهو رسول الله ﷺ، فهي بدايات تخضع لتكوين
سردى يتجلى في كل عتبات الولوج إلى القصة والخروج منها.

والصراع والتضاد يتجلى منذ البداية بين رسول الله ﷺ والمشركين، وهو
صراع كان منذ الأزل، منذ آدم، عليه السلام، وإبليس. وقد أشار الله عز وجل
إلى هذا الصراع الأزلي في السورة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَسْتَنْجِدُونَ دَرِيئَتَهُ
أُولَئِكَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾، ليربط بينه
وبين أوجه الصراع في القصص. ففي قصة أهل الكهف، كان هناك صراع بين

السلطة المشتركة الظالمة وبين الفتية المؤمنين الهاربين إلى الكهف، وفي قصة صاحب الجنتين كان الصراع بين الغني المتكبر والفقير المؤمن، وفي قصة ذي القرنين، كان هناك «أكثر من صراع في رحلته الثلاث، بين مَنْ ظَلَمَ وَمَنْ لم يُظَلَمَ، بين يأجوج ومأجوج وبين الآخرين»^(١).

وهذا الصراع العام هناك أفضى إلى تقابل محوري في المواقف، التي تخللت القصص كلها، أضفى على القصص تماسكاً مميزاً.

فقد صيغت الموضوعات وفق بناء تقابلي، مثل موقف أهل الكهف، الذي يجسد نبذاً للحياة الاجتماعية، التي كانوا يحوونها، أي نبذ زينة الحياة الدنيا، في مقابل موقف صاحب الجنتين، المتشبه بزينة الحياة الدنيا، المتمثلة في المال والنفرة والأعصاب. والتقابل بين موقف الكافر المتكبر على نعم الله عليه، وموقف المؤمن، الذي كان يحاول إرشاد صاحبه.

كذلك وقع التقابل على مستوى الشخصيات بين الكافر المتكبر نفسه، الذي كان يملك جنتين، واعتقد أنها لن تبعد أبداً، وبين ذي القرنين، الذي كان يملك المشرق والمغرب، لكنه كان يقر برحمة الله وبنعمته عليه.

كما تمت المقابلة على مستوى المكان في إطار البناء والهدم: بناء مسجد على الكهف، بناء الجدار المنقوض، بناء الردم بين السدين؛ أما الهدم فيتمثل في حرق السفينة، الجدار قبل ترميمه، دك الردم بين السدين حين يأتي وعد الله.

(١) دراسة جمالية بيانية، مرجع سابق، ص ٨٧.

ومن لطائف المقابلة حالات الخفاء والظهور، كما حدث لأصحاب الكهف، والكنز المدفون، ويأجوج ومأجوج، فجميعهم يمثل حالة الاختفاء عن الأنظار، أو الدفن تحت الأرض تعقبها حالة الخروج أو الظهور. ومثل هذه المقابلات، التي يستشفها المتلقي، تنسج خيطاً ناظماً يحقق الانسجام والتناسق بين أجزاء السورة.

ولا تقتصر المقابلة على الجانب الدلالي وإنما تتم على مستوى الجانب اللفظي أيضاً، وأمثلة ذلك كثيرة في قصص سورة الكهف، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آتِكَافَآً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ (١٨).

وللزمن في قصص السورة حضور عميق، فيه من الانسجام والاتساق الشيء الكثير، وهذا الحضور مبعثه زمن الحاضر المتلقي للقصص، سواء كان حاضر رسول الله ﷺ، أم حاضر من يتلقى القرآن، وغيب الماضي والمستقبل، الذي لا يعلم حقيقته وأخباره إلا الله.

فزمن قصة أهل الكهف وصاحب الجنتين وموسى، عليه السلام، والرجل الصالح وذو القرنين زمن ماض من الحياة الدنيا، واسترجاع له للتأثير على الحاضر. ويحيل على جدل زمني، يكمن في مدة رقاد أصحاب الكهف، وفي التقدير الخاطيء للمستقبل عند صاحب الجنتين، وفي عدم صبر موسى، عليه السلام، على كشف الزمن المستقبلي، وفي تأخر بقاء يأجوج ومأجوج داخل

الردم. وهكذا تجتمع في هذه السورة كل الأزمنة، أزمنة الغيب وأزمنة الشهادة؛ على أن المسألة ليست حسابية، بل هناك أثر نفسي يؤديه هذا الانسجام والتناسب والتناسق العجيب حين يجتمع الحاضر الدنيوي، وهو زمن الصراع مع الشرك، تصغيراً لمساحته، مع أزمنة القصص الممتد من ماضي الغيب السحيق، إلى مستقبل الغيب الأبدي^(١).

وتعد الفاصلة من أبرز مظاهر الانسجام في سورة الكهف، وهي كلمة تأتي آخر الآية^(٢)، ككافية الشعر وسجعة النثر، ومن المعلوم أن للفاصلة في التقفية دورها النفسي، سواء في إيقاعها الموسيقي أم في علاقتها الجوثية بالآية، التي ترد فيها أو المقطع في مجموعة آيات، أو علاقتها الكلية بمحمل السورة^(٣).

وتختص سورة الكهف بحركة الفتح، التي تتحول إلى ألف مدّ في الإطلاق (ك: حسناً، حسناً). وحركة الفتح تضيف أهمية موسيقية على كل فواصل السورة. وقد التزمتها باطراد، وقامت مقام الروي في الشعر، فسوغت تعدد حروف الروي ذات المخارج المتقاربة، وهي حروف اللسان: ق، ج، ض، ل، ن، ر، د، ط، ص، ز، ومثال فواصلها: (مرفقاً، عوجاً، عرضاً، عملاً، حسناً، نمرًا، أبدًا، فرطاً، قصصًا، جُرزلاً)، وغير المتقاربة مثل حرف العين الحلقية

(١) انظر: دراسة جمالية بيانية، مرجع سابق، ص ٨٥-٨٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١/٥٣.

(٣) دراسة جمالية بيانية، مرجع سابق، ص ٨٨.

والحروف الشفوية: ف، م، ب، و، المتحركة بالفتح. ومثال فواصلها: (تسعا، أسقا، علنا، هزوا، كذبا)^(١).

ولكل فاصلة من تلك الفواصل دورها وأهميتها في سياقها الجزئي أو الكلي، تضيء على القصص انسجاماً وتناسباً، سواء في الدلالة أم في الإيقاع الموسيقي. ففاصلة ﴿هَزُوا﴾ مثلاً وردت في موضعين: الأول في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۗ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۗ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ (٥٦)، والثاني في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (١٠٦).

و«تكرار فاصلة هزوا تكرار فني مقصود، لا يراد منه أن تُذكر الثانية بالأولى من باب التناغم الموسيقي وحسب، بل يضاف إلى ذلك، التعقيب بذكر العقاب، الذي جاء نتيجة للجدال بالباطل، واتخاذ الآيات والنذر والرسول مادة للهزء والسخرية، بعد وصف أهوال القيامة: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَسَعَتْهُمْ جَمَاعًا ۗ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۗ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۗ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ۗ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۗ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۗ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيْدُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۗ أُولَٰئِكَ

(١) المرجع السابق، ص ٨٨-٨٩.

الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٠﴾
(٩٩-١٠٦).

وذلك كله بعد سرد قصة ذي القرنين الحاكم العادل القوي، الذي قال
عن السد المحصن بالحديد والنحاس مزوجين: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي رَبِّي فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، وبعد قصة موسى، عليه السلام،
والرجل الصالح، التي أوضحت الفرق بين حكمة الإنسان المحدودة وحكمة
الرحمن، التي لا حدود لها^(١).

وبالإضافة إلى ما ذكرته سابقاً من الانسجام والتماسك والتناسب الدلالي
والإيقاعي، فإن هناك انسجاماً واتساقاً على المستوى الشكلي، وقد وظف
القرآن لذلك وسائل كثيرة، وسأقتصر على الروابط ودورها في تحقيق
هذا التماسك، كالنعت وعطف النسق^(٢)، في التلخيص، الذي استهل به
الله عز وجل قصة أهل الكهف قبل أن يفصل القول فيها، وذلك في قوله:
﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا
مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ﴿١٠٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١٠١﴾
(١٠٠-١٢).

(١) دراسة جمالية بيانية، مرجع سابق، ص ٩٠/٩١.

(٢) عطف النسق هو تابع يتوسط بينه وبين متبوعه حرف من حروف العطف.

والروابط الموجودة في الآيات تتمثل في العطف في الآية العاشرة بالفاء والواو، وهو ربط بين أربع جمل: ﴿أَوَى الْفِتْيَةُ﴾، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا﴾، ﴿إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحِمَةٌ﴾، ﴿وَهِيَ لَنَا مِن آمْرِنَا رَشَدًا﴾، ويحدث التماسك بين العاشرة والحادية عشرة بالفاء التي وقعت في جواب الطلب أو الدعاء، ﴿فَضَرَبْنَا﴾، ثم يربط بين الآية الحادية عشرة والثانية عشر بـ ﴿ثُمَّ﴾. كما تتمثل الروابط في النعت في قوله تعالى: ﴿سِينِينَ عَدَا﴾، فعدداً نعت لسنين. وهذه التوابع نجدها على طول القصص تحقق انسجاماً وتناسقاً، سواء داخل كل قصة على حدة، أم بين القصص ككل.

وبالنظر إلى القضية الأم، التي تعرضها القصص في سورة الكهف، نجد أن مظاهر الانسجام والتناسب تصب في مجال تجلية ثنائية الكفر والإيمان المهيمنة عليها رغم تنوع موضوعاتها. وقد برزت في بلاغة إعجازية، تماهى فيها الانسجام الجمالي مع الانسجام المعرفي، وشكلاً معاً وحدة موضوعية، متسقة مع كليات القرآن التشريعية.

٢ - سورة يوسف:

وقصة يوسف، عليه السلام، في القرآن الكريم لها طابع خاص، فهي قصة إنسانية اجتماعية شديدة الجاذبية، وهي القصة القرآنية الوحيدة، التي تخصصت لها سورة محددة تحمل اسم النبي يوسف، عليه السلام، وتميز بأنها تبدأ القصة من بدايتها إلى نهايتها، منذ أن حكى يوسف لأبيه يعقوب الحلم إلى أن التقى يوسف بأبيه وأسرته في مصر بعد وقائع وأحداث مؤثرة.

لذا ستكون محاولة مقارنة مظاهر الانسجام والتناسب فيها تختلف عن سورة الكهف.

ويستهل الله عز وجل سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ ﴿٣﴾﴾ (١-٣). وهو استهلال يتضمن تأكيداً على ما في السورة من وضوح وبيان وتأدية للمعاني، التي تقوم بالنفوس^(١)، وحسن تجلية للقصة المعروضة. وفيه انسجام وتناسب بين ما ورد في آخر السورة، التي قبلها ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (هود: ١٢٠)، وبين ما سيأتي من سرد لقصة أحد أنبياء الله، عليهم السلام، ووجه التناسب بينهما أن تلك «الأنبياء المقصودة، فيها ما لاقى الأنبياء من قومهم، فاتبع ذلك بقصة يوسف، وما لاقاه من إخوته، وما آلت إليه حاله من حسن العاقبة، ليحصل للرسول ﷺ التسلية الجامعة لما يلاقيه من أذى البعيد والقريب».

فقصة يوسف، عليه السلام، من هذا الاعتبار سرد استرجاعي يتناول أحداثاً حقيقية، وقعت في غابر الأزمان، من أجل تأثيره في حاضر المتلقي. والوحدة الجامعة بين الماضي والحاضر تقوم على دعمتين أساسيتين: الصبر على

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ٤/٣٦٥.

الشدائد، والرجاء في فرج الله ونصره، ثم التقابل بين الشدة والفرج، وبين العسر واليسر. وامتازت بالتسلسل الأحداثي المتواصل، دون أي تقطيع لحركية أحداثها ونموها. فهي من بدايتها إلى نهايتها وحدة سردية واحدة. وإذا كانت هذه القصة استرجاعاً تاريخياً مستهدفاً، يحث الرسول ﷺ على رؤية ماضوية بما فيها من إشارة له، لحدث مستقبلي، وهو هجرته إلى المدينة، وما سيكون له فيها من النصرة والقوة، فإن هذه الوحدة بالنسبة إلى المتلقي في العصر المعاصر، استرجاع مزدوج.

وهذه الثنائية تعمل أضعافاً مضاعفة؛ فالرسول ﷺ يتذكر يوسف، والمتلقي المعاصر يتذكر ما جرى لرسول الله ﷺ أولاً وما جرى لنبي الله يوسف، عليه السلام، ثانياً^(١).

وتنقسم القصة إلى مراحل زمنية متتالية، وحلقات سردية تتبع مسار تطور الشخصية الرئيسة فيها وهي يوسف، عليه السلام، مرحلة الطفولة، ومرحلة الشباب، ومرحلة القيادة.

المشهد الأول من المرحلة الأولى يبدأ برواية يوسف، عليه السلام، لوالده الرؤيا، التي رآها، وتحذيره من حكيها على إخوته: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ

(١) دراسة نقدية في توظيف الاسترجاعات في قصة يوسف، حسين كياني وسعيد حسام، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد الرابع عشر، ٢٠١٣، ص ١٥٥.

﴿٦﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْضُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْهَأَ عَلَيْكَ أَبُوَيْكَ مِن قَبْلُ إِزْرَهُمْ وَاتَّقَىٰ إِيَّانَ رَبِّكَ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٤-٦﴾.

ويتميز السرد باتكائه على الرؤيا، التي قدمت الشخصية الرئيسة في القصة، وهي يوسف، عليه السلام، في علاقته بأبيه وإخوته، وقد صاحب التقدم تذييل استباقي يلخص المكانة، التي سيصلها يوسف، عليه السلام، مستقبلاً ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْهَأَ عَلَيْكَ أَبُوَيْكَ مِن قَبْلُ إِزْرَهُمْ وَاتَّقَىٰ إِيَّانَ رَبِّكَ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ ﴿٦﴾.

ويبتاع السرد في تسلسل بديع، يحكي مجموعة من الأحداث، التي وقعت ليوسف، عليه السلام، في ترابط وانسجام، منذ إلقائه في البئر وإنقاذه إلى استقراره في قصر العزيز، يقول تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوًا قَالَ يَبِئْسَ هَذَا عِلْمٌ وَأُسْرُهُ يُضَعُّ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦﴾ وَشَرُّهُ بِشْرٍ بِخَيْسِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ﴿١٩-٢٠﴾.

وقد تالت الأفعال في الآيتين الكريمتين تتالياً سريعاً، رشيقاً، بالفاء العاطفة، التي تفيد ترتيب حدوث الأفعال وتعاقبها دون فارق زمني يذكر، وهذا معناه أن المسافرين لما صاروا على مقربة من البئر أسرعوا في إرسال من يجلب

وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْمَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَمَا بُرْهَانَ رَبِّيَ كَذَلِكَ لِنَصْرَفَ
عَنهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٣﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ
وَقَدَّتْ قَيْصُومٌ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيْدَهَا لِدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ
بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ قَالَ هِيَ رُوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَيْصُومٌ قُدِّ مِن قَبْلِ فَصَدَقَتْ
وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ كَانَ قَيْصُومٌ قُدِّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَمَا قَيْصُومٌ قُدِّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ
كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ
كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٨﴾ (٢٣-٢٩).

من بداية هذه الآيات تحضر امرأة العزيز في السرد، يستهلها عز وجل
بلفظة المرودة، والرود هو التردد في طلب الشيء برفق، ومنه الرائد لطالب
الكلاء، والإرادة منقولة من راد يرود إذا سعى في طلب شيء، والمرودة أن
تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد، فراودته، أي سعت في طلبه بشتى
الوسائل^(١)، وقوة اللفظة الدلالية تكشف عن موقف المرأة من فتاها، الذي
رنته، وعن بلوغ الحدث درجة كبيرة من التعقيد والتوتر.

ويزداد إحساس المتلقي بعظم الجرم، الذي تسعى إليه امرأة العزيز بتوظيف
﴿أَلْتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ بدلاً من يوسف؛ لأن الإتيان بلفظة البيت في غابة
الدقة، والدلالة المتولدة عن توظيفها أعم وأعمق من توظيف أي لفظ آخر.

(١) انظر: لسان العرب، المجلد الثالث، ص ١٨٧-١٩١.

وتتطور الأحداث وتتنامى بإيقاع سريع وانسجام بديع: ﴿وَعَلَّقَتْ
الْأَبْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، وقصد السرد تشديد الفعل للتكثير^(١)،
للدلالة على مدى حرصها على الإطباق على يوسف، عليه السلام. وقالت
﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي تعال، لقد تهيأت لك. كلمة من ثلاثة حروف مختصر
دلالات عدة معبرة عن استسلام وتزین ورغبة المرأة في يوسف، وعن أمر
مولوي يصدر عن سيدة لخادمها. فهيت لك تدل على أعمال المولوية
والسيادة مع إشعار يوسف بأنها هيأت له من نفسها ما ليس بينه وبين طلبها
إلا مجرد إقباله عليها. ويبادر يوسف إلى القول: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ
مَثْوَايَ﴾، والمراد بربه هنا: سيده، أي زوجها، الذي اشتراه من مصر
والذي كان قد قال لامراته حين أتى به: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَيْ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا
أَوْ نَخْتَدِمُ وَلَدًا﴾ (يوسف: ٢١)، فهو أوصى به امرأته، فقال لها:
﴿أَكْرَمِي مَثْوَيْ﴾، لذا قال يوسف: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾،
والضمير في: ﴿إِنَّهُ﴾ معلوم بينهما، وهو زوجها. فالتناسب قائم بين كرم
المثوى وحسن هذا المثوى.

كما أن هناك تقابلاً بين الخيانة في موقف امرأة العزيز والإخلاص في
موقف يوسف، عليه السلام، لقد رفض الخيانة؛ لأن الله أتاه العلم والتقوى،
فاستحى أن يخون، الذي أكرم مثواه، فعدم الخيانة لها سبب ذاتي هو تقوى

(١) انظر: القرطبي، ١٦٢/٩.

يوسف، عليه السلام، وسبب موضوعي هو الإخلاص لمن أحسن مثواه. وتوظيف الأسلوب الحوارى هنا ككف البنية السردية، وترك الأحداث تتسارع من خلاله، فتعددت الصور، وتنوعت مظاهرها النصية، وقدمت كل شخصية حسب القيم، التي تحركها، وتنتج مواقفها وأفعالها. ويردف الله تعالى في هذا السياق تديلاً مناسباً يؤكد قيمة الإخلاص في الممارسة السلوكية: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِضِينَ﴾ (٢٤).

ويتصاعد التوتر والصراع، فالمرأة لم ترتدع رغم رفض يوسف، عليه السلام، وحاولت معه مرة أخرى، فيهرب منها، ويجري إلى الباب يحاول الخروج فتسابقه، تريد صرفه، وتشق قميصه من شدة لفتتها عليه.

وفي تلك اللحظات الحرجة يدخل العزيز، وكان للمرأة من سرعة البديهة والمكر ما حاولت بهما قلب الصورة، التي يشاهدها العزيز أمامه: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٢٥)، وحاول يوسف دفع التهمة عنه، ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وكان أحد الأهل حاضراً، فتدخل ليحكم بينهم: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدًّا مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَتَايِكُنَّ إِنَّ كَتَايِكُنَّ

عَظِيمٌ ﴿٢٦﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٧﴾ (يوسف: ٢٦-٢٩).

فالشاهد أسند للقميص عملية الفصل بين يوسف، عليه السلام، وامرأة العزيز. ورأى العزيز الدليل، وظهرت براءة يوسف، عليه السلام، واضحة بجلاء، لكن رد فعل العزيز على خطيئة زوجته لم يكن مناسباً، وهذا يدل على البيئة المتفسخة، التي كان المجتمع يعيش فيها، بحيث أصبحت الفاحشة شيئاً عادياً لا يثير، لذا اكتفى العزيز بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكِنَّ إِنَّ كَيْدَكِنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾، والتأكيد على الكيد الوارد هو وصف العزيز للنساء جميعاً، وليس وصف الله تعالى لهن، فالأمر يتعلق بالنظرة التاريخية للمرأة، وظفها العزيز كي يعلن عن موقفه وموقف المجتمع منها، وهو موقف خاطئ ينتج عنه تصرف غير مسؤول: انس يا يوسف، ولا تذكر ما حصل، وتراجعي يا زوجتي، إنك خاطئة!!

ومع ما استجد من أحداث ندرك أن العزيز ظل سلبياً تجاه هذا الأمر الخطير، الذي وقع في بيته وعلى مرأى منه، وظلت المرأة مصدر غواية ليوسف، عليه السلام، داخل البيت، الذي يجمعهما. وانتشر الخبر، لتنتقل الأحداث من البيت إلى المجتمع في تصاعد متناسق: ﴿وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِيْنَةِ أَمْرَاتُ الْعَزِيْزِ تَرْوِدُوْنَ فَنَهَا عَنْ نَفْسِيْهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ ﴿٣٠﴾﴾ (يوسف: ٣٠).

وقد وظف الله تعالى لفظة المرادة نفسها للتعبير عن تكرار الأمر وذيقه، ويؤكد استمرارية الضغط على يوسف، عليه السلام، ومعاناته. ويجد المتلقي نفسه إزاء صورة قصصية حوارية تتحدث فيها النسوة عن خطيئة امرأة العزيز، مركزة على ثلاثة عناصر متداخلة ومتراصة:

العنصر الأول، هو المرادة بما يحمله من ثقل دلالي، وجاءت بصيغة المضارع مع كون المرادة مضت، لقصد استحضار الحالة العجيبة، واستنكارها في أنفسهن ولومها على صنيعها.

العنصر الثاني، هو توصيف حالة امرأة العزيز، التي وصلت إلى حالة الشغف، أي أن حب المرأة اخترق الشغاف فبلغ القلب، كناية عن تمكنه فيه^(١).

العنصر الثالث، الحكم عليها، والضلال هنا يعني مخالفة طريق الصواب، أي هي مفتونة العقل بحب هذا الفتى^(٢)، وليس المراد الضلال الديني، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف: ٨).

ويسترسل السرد في تتبع الأحداث بسماع امرأة العزيز ما يدور من لفظ حولها، فتدبر حيلة كي تُري يوسف، عليه السلام، للنساء، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجْدٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ

(١) انظر: الألويسي، روح المعاني، ٢٢٥/١٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢٢٧/١٢.

لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾. وأعدت: أصله أعدت، أبدلت الدال الأولى تاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ٣٧).

فالسباق هنا يكشف عن مشهد من إعداد المرأة المفتونة بيوسف لمواجهة مكر النسوة، فنجدها هيأت مجلساً فخماً، مناسباً للطعام ولداولة الحديث بين نساء الطبقة الأرستقراطية، وأعطت لكل واحدة منهن سكيناً، وقصدت من تقديمه أن يؤدي وظيفتين: وظيفة ظاهرة في سياق الآية تدل على التقطيع، ووظيفة مضمرة ترمز إلى دلالات القسوة والانتقام وطغيان الشهوة الكامنة في نفس امرأة العزيز. وكلها دلالات لها وقع خاص على تحريك مشاعر المتلقي والتفاعل مع الحدث بشدة، وانتظار ما سيسفر عنه، بعد أن أمرت يوسف عليه السلام، بالخروج إليهن. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَسْرَةٌ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، فهذه عبارات الإعجاب والدهشة والذهول، وهذا ما كانت تريد امرأة العزيز أن تصل إليه، لذلك قالت قولة تكشف عن إصرارها على إغرائه بفعل المعصية، وإن لم يستجب فسيكون مصيره السجن: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْتُهُنَّ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف: ٣٢).

ومن خلال الدعاء، الذي ناجى به يوسف، عليه السلام، ربه في خضم هذا المشهد، نفهم أن فعل الإغراء والفتنة لم يكن مقتصرًا على المرأة فقط،

وإنما انتقل منها إليهن: ﴿قَالَ رَبِّ اَلْتَجِنُ اَحَبُّ اِلَىِّ مِمَّا يَدْعُوْنِي اِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣)؛ لأن فعل الدعوة مسنود للجمع. فالحرية هنا مقابلة للخيانة، والإخلاص مقابلة السجن.

وفي غمرة الدعاء يجد المتلقي نفسه أمام لفتة إنسانية مبهرة تثير مشاعره، وتربيه على الالتجاء إلى الله في كل الأحوال، مهما كان صلاحه وقوته في مواجهة مغريات الحياة: ﴿وَإِلَّا نَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف: ٣٣-٣٤)، «فهي دعوة الإنسان العارف ببشرته، الذي لا يفتخر بعصمته؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته، يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء»^(١).

وتزداد الأحداث تنامياً، وتتطور المواقف، وتتعدد العلاقات بين الشخصيات، فتتوزم وتتأزم، ويدخل يوسف، عليه السلام، السجن ظلماً وعدواناً. وحين تتاح له فرصة الخروج لا يلهف عليه، بل يصر على البقاء حتى تُرفع عنه التهمة، التي ألصقت به، ويطلب التحقيق في المؤامرة، التي حيكّت ضده، باستجواب النسوة، اللاتي حضرن مأدبة المرأة، ليكنّ شاهدات في قضيته: ﴿قَالَ اَرْجِعْ اِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ اَلنِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ اَيْدِيَهُنَّ اِنَّ رَبِّي يَكْفِيهِنَّ عِلْمٌ﴾ (٥٠).

(١) في ظلال القرآن، ١٢/١٩٨٥.

لقد رد يوسف، عليه السلام، أمر العزيز باستدعائه حتى يستوثق من أمر التهمة، التي دخل بسببها السجن، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، «تذكيراً بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له بعدها، وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة، دون أن يتدخل هو في مناقشتها. كل أولئك لأنه واثق من نفسه، واثق من براءته، مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً، ولا يخذل طويلاً»^(١).

ويسكت السرد عن ملابس التحقيق، ليقدم النسوة مباشرة أمام العزيز، يسأل عن الأمر الجلل، الذي وقع فيه: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ (٥١)، وكان الجواب واضحاً دون جدال: ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ (٥١)، وهنا تتقدم المرأة، التي شغفها يوسف، عليه السلام، جأً وحاولت إغراءه بكل الوسائل: ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ إِنَّنِي لَفِيضَةٌ مِّنْ نَّفْسِكُ إِنَّهُ لَيْسَ إِلَهُي إِلَّا اللَّهُ فَانصُرْنِي عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا كَيْدَ لَهُمْ ﴾ (٥١)، «وزادت ما يكشف عن أن قلبها لم يخجل من إثاره ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمد؛ وما يشي كذلك بأن عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمن: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ

(١) في ظلال القرآن، ١٢/١٩٩٤.

الْفَائِزِينَ ﴿٥٢﴾، وهذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق بألفاظ موجية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر»^(١).

وهنا ينتهي الصراع بين امرأة عاشقة استسلمت لنداءات الشهوة والخيانة، وغيت قيم الشرف والإخلاص والفضيلة، وبين فتى محفوف بعناية الله، معتصم برحمته، متمسك بكل القيم الإنسانية.. ينتهي لصالحها بعد أن وقع تحول في عقيدتها وموقفها، وتغير نحو الأحسن.

فالمرأة وإن لم يكشف السرد عن طبيعة التحول، وطبيعة التغيير، الذي جعلها تعترف بأنها المخطئة، وتعلن توبتها: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، إلا أن السياق العام يوحي بأن تقوى يوسف، عليه السلام، وموقفه الصارم في مواجهتها، وتمسكه بالله والالتجاء إليه، والدعوة إلى عبادته، كل ذلك جعلها تتغير نحو تحملها مسؤولية الذنب، الذي اقترفته، وتتحول نحو إعلان التوبة، وإعلان مدى ضعف الإنسان أمام نفسه الأمارة بالسوء إلا من رحمه الله واعتصم به سبحانه.

وتبدأ مرحلة أخرى من مراحل حياة يوسف، عليه السلام، وهي مرحلة القيادة، حيث تحققت حكمة الله من الابتلاءات، التي أصابته، وقعد على اقتصاد مصر، يديره بحكمته وسداد رأيه، وكما بدأت القصة بالرؤيا والوعد

(١) المرجع السابق، ص ١٩٩٥.

بالتمكنين، انتهت بتحقيق الرؤيا وتحقيق التمكين والنصر والقوة بعد الشدة والسجن والإغراء.

وقد احتف سورة يوسف بالفاصلة، سواء في إيقاعها الموسيقي أم في علاقتها الجزئية بالآية، التي ترد فيها، أو علاقتها الكلية بمحمل السورة. وقد اعتمدت على حرف المدّ، الذي يسبق الروي الساكن مثل: عظيم، مبین، يشكرون. وزاوجت بين الفاصلة المتجانسة كالصالحين والزاهدين والظالمين، وبين الفاصلة المتقاربة كيسير وعليم. وقد تراعي الفاصلة الفواصل السابقة واللاحقة لتناسب بينها، في مثل قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦)، فقد تكررت كلمة «لعل» مراعاة لفواصل الآيات السابقة واللاحقة المختومة بالنون.

إن المتتبع لأنواع العلاقات في تناسب قصة يوسف، عليه السلام، وانسجامها، يذهل من تنوعها وتأثيرها على المتلقي، كالاتفات والإجمال والتفصيل والاستطراد والفاصلة وغير ذلك، وحسبي أنني حاولت أن أجدد التعرف على بعض هذه الأنواع ومستوياتها، بفضل الله وعونه.

المبحث الثاني جمالية التصوير والتشخيص

ترد الصورة في كلام العرب على معنى حقيقة الشيء وهيبته، وعلى معنى صفتة، والمصوّر من أسماء الله الحسنى، الذي صور جميع الموجودات وربّها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيبة مفردة يميز بها، على اختلافها وكثرتها^(١). ويعتبرها قدامة بن جعفر الوسيلة أو السبيل لتشكيل المادة وصوغها، شأنها في ذلك شأن غيرها من الصناعات^(٢).

وهي مصطلح عام وشائع اهتمت به مجموعة من العلوم، واستخدمه النقد الأدبي، قديماً وحديثاً، يقول الجرجاني: «واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلما رأينا البيئونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان تبيين إنسان من إنسان وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك منه، كذلك الأمر في المصنوعات، فكان بين خاتم من خاتم، سواراً من سوار بذلك، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بيئونة في عقولنا وفرقاً، عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البيئونة بأن قلنا: المعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك. وليس

(١) انظر: لسان العرب، المجلد ٤، ص ٤٧٣.

(٢) بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، ص ٢٢.

العبرة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكر، بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء، ويكفيك قول الجاحظ: «وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير»^(١)، الأمر الذي يعني أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأنّ المعنى الذي يُعبّرُ عنه سبيل الشيء، الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار.

فكما أنّ محالاً إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ودرأته أن تنظرَ إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب، الذي وقع فيه العملُ وتلك الصنعة. كذلك محالٌ إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه^(٢).

أما التشخيص لغة فهو يدل على الارتفاع والظهور^(٣)، وفي الاصطلاح فهو إسناد صفة من يعقل، أي الإنسان، إلى ما لا يعقل من المحسوسات والمعنويات، بحيث تبدو وكأن لها حواس الإنسان ومشاعره، ومخاطبة ما لا يعقل بخطاب من يعقل وتقدمه في صورة معينة^(٤).

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية ود. فايز الداية، ط ٢ (دمشق: مكتبة سعد الدين، ١٩٨٧م) ص ٤٤٥.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٢٥١.

(٣) انظر: لسان العرب، المجلد السابع، ص ٤٥.

(٤) انظر: المعجم الأدبي، جبر عبد النور، ص ٦٧، التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ٦٣-٦٤.

ولعل الفراء قد أشار إلى هذا النوع من التصوير في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ (البقرة: ٣١) فقال: «عبر عن الأسماء بلفظ العقلاء»^(١).

وبما أن للنص الأدبي تركيبته الخاصة، فإنه يمنح التصوير مجالاً للتكوين والنمو، لذا كانت بلاغة التصوير جمالية معجزة في القرآن الكريم، خاصة في القصة، حيث يشكل مكوناً رئيساً فيها، تتحرك من خلاله الصورة وتقدم فضاءات جمالية ودلالية للتأمل والتدبير. فهو يمثل الأداة المفضلة والشائعة في القصة القرآنية، إذ «يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتحددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية بجسمة مرئية.. أما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل»^(٢).

ولما كانت قضايا وموضوعات القصة في القرآن الكريم بمثابة تشخيص أنموذجي للقضايا، التي يقدمها، وعرض حي لموضوعاته، فإنها لا تفصل

(١) معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، ط ١ (الدار المصرية للتأليف والترجمة) ص ٣٢.

(٢) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب.

ولا تفيض في الأحداث أو الشخصيات إلا بقدر ما تحدث في النفس من أثر، وما تهرز به أعماقها، لتطلعها على حقائق الحياة والوجود، وما من شأنه أن يتناسب مع أهداف القرآن الكريم وغاياته.

فالإتيان بنماذج من الأمم السابقة، وقص جوانب من حياتهم، وانتخاب مواقف وأحداث تظهر معادن الشخصيات ومواقفها في مواطن القوة والضعف، ومنازع الإحسان والسوء فيها، وتصوير رؤاها وقيمها ومفاهيمها وقناعاتها، ليست سوى رسم تشخيصي للحياة الإنسانية عبر مراحلها، ابتداء من الخلق الأول، وما يطبعها من سموق وهبوط، من تأييد أو اعتراض، من هدي أو ضلال، لكل ما جاء في القرآن الكريم من الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وتحقيق خلافة الإنسان في الأرض على وجهها الأكمل بعبادة الله عز وجل.

فتصوير الشخصية أو الحدث أو الموقف أو غير ذلك، مهما كانت وظيفته في حركة الحياة وسيورتها وجمالها أيضاً، يمثل شاهداً من شواهدها، وملحاً يؤكد أبعاداً وإفادات متجددة.

وهذه جملة من الصور الجميلة، التي تترك أثراً مبهرراً في نفسية المتلقي ووجدانه وعقله.

يقول تعالى في سورة يونس مصوراً النفس البشرية في سرد قصصي بديع:

﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ صَرَّاهُ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١٠١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي

الَّذِي وَالْبَحْرَ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ يَبْرِجَ طَبِجًا وَفَرِحُوا بِهَا
جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ
دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِن آجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَنَّكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ
﴿٢١﴾ فَلَمَّا أَجْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِأَيِّهَا النَّاسُ إِنَّمَا
بَغَيْكُمُ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ (يونس: ٢١-٢٣).

يفتح الله تعالى هذه الصورة القصصية ببلغة لطيفة، يسند فيها الرحمة له سبحانه، ويسند المساس إلى الضراء، وهي إشارة إلى أن ما يصيبهم من شر يكون نتيجة أعمالهم، ويأتي جواب الشرط ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ ليقرر حالتهم بعد الرحمة.

وقد نزلت الآيات في كفار قريش، حيث سلط الله عليهم الجذب والقحط حتى خافوا الهلاك، فجاؤوا إلى سيدنا محمد ﷺ، ليدعو لهم وقد وعدوه بالإيمان، فلما رحمهم الله رجعوا إلى كفرهم وعنادهم ومكرهم بآيات الله^(١).

يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «ومعنى مكرهم في الآيات أنهم يَمَكُرُونَ مَكْرًا يَتَعَلَّقُ بِهَا؛ وذلك أنهم يوهمون أن آيات الله غير دالة على صدق الرسول محمد ﷺ وزعموا أنه لو أنزلت عليهم آية

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٧٧٣/٢.

أخرى لآمنوا، وهم كاذبون في ذلك، إنما يكذبون عناداً ومكابرة وحفاظاً على دينهم في الشُّرك»^(١).

ثم يأتي عز وجل بصورة حركية يؤكد فيها القدرة الإلهية المهيمنة على الحركة والسكون في البر والبحر: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، لتتوالى الصور القصصية بعد ذلك، تحكي عن فرح أهل السفينة والريح الطيبة تجري بهم في أمان وطمأنينة، لكن يفاجأ المتلقي باضطراب السفينة، واستبدال الذعر بالأمن والغم بالفرح، بعد أن هبت الرياح العاصفة، وضربتها الأمواج من كل جانب.

ولما يتيقن المشركون أنه الهلاك والفرق، تأتي صورة أخرى تعبر عن فطرتهم، التي تُلجسهم إلى الله في الشدائد، «فجملة ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، ومعنى مخلصين له الدين محضين له العبادة في دعائهم، أي دعوه ولم يدعوا معه أصنامهم. وليس المراد أنهم أقلعوا عن الإشراك في جميع أحوالهم، بل تلك حالتهم في الدعاء عند الشدائد. وهذا إقامة حجة عليهم ببعض أحوالهم»^(٢).

ثم تأتي مفاجأة أخرى بصورة متحولة، حين ينجيهم الله فيشركون به ﴿فَلَمَّا أَجْنَبَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وأتى الله تعالى

(١) التحرير والتنوير، ١١/١٣٣.

(٢) التحرير والتنوير، ٦/٤٦٠.

بحرف إذا الفجائية في جواب لما للدلالة على تعجيلهم بالبغي في الأرض عقب النجاة^(١).

وتنتهي الصورة الكلية بتذليل يكفى بالإنباء عن جزاء البغي والظلم والشرك، وإفادة الاختصاص، تنزيلاً للمخاطبين منزلة من يظن أنه يرجع إلى غير الله^(٢).

إن هذه الصور المتتالية المفعمة بالحركة والتوتر وتغير الأحوال والهيات تشخيص مبهر، وفر له تعالى من البلاغة ما يجعل المتلقي يعيش مراحلها المتنوعة.

ومن بديع ذلك أن الآية «لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمير الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تحيات للانتقال إلى ذكر الضراء، وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ ۖ﴾ على طريقة الالتفات، أي جرّين بكم. وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفرّيقين إلى أن قال: ﴿فَلَمَّا أَنْجَحْتُمُ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، فإن هذا ليس من شيم المؤمنين، فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين، فقد أخرج من الخير

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦١.

من عدا الذين ييغون في الأرض بغير الحق تعويلاً على القرينة؛ لأن الذين ييغون لا يشمل المسلمين»^(١).

وهذه التلوينات البلاغية أضفت على الصور القصصية مزيداً من الحيوية والجمال، حيث الإقناع العقلي والإيحاء النفسي، بالإضافة إلى إبراز مواقف فئة من البشر المتغيرة حسب حالاتهم ومصالحهم.

ومن الصور القصصية، التي تسرد مشهداً عجبياً، وتحيط بالحالة من كل جوانبها بيلاعة معجزة قوله تعالى بعد تقديمه تلخيصاً لقصة أهل الكهف:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً ظَالِمًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنَقَلْنَاهُمْ لِيُذَكَّرَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَنِي سَيْطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾﴾ (الكهف: ١٧-١٨).

فالتفتية في فجوة من الكهف، تحيط بهم كل أسباب الحياة، الشمس عند الشروق والغروب تميل عليهم، كان لها إرادة في عملها، ويتقلبون يمناً وشمالاً، كي لا يضرهم البقاء على جنب واحد، وكلبهم نائم أمامهم كأنه يجرسهم، والإتيان بالمضارع في ﴿وَنَقَلْنَاهُمْ﴾ للدلالة على التجدد، لو اطلع عليهم أحد لولى فراراً من شدة الرعب.

(١) المرجع السابق، ص ٤٥٨.

والصورة القصصية مفعمة بظلال نفسية، تشخص حالة أهل الكهف بدقة، وتتضافر عناصر عدة للتأثير بما على المتلقي، كصنيع المضارع والمبالغة والاستعارة وغيرها من الأساليب البلاغية.

ولعل أبلغ الصور التشخيصية، تلك التي وردت في قصة نوح، حين قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأَهُ أَقْلِي وَيَغِيصَ الْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤).

ويتمثل التشخيص في نداء الأرض والسماء بما يُنادى به الإنسان، ثم أمرها الله تعالى بما يؤمر به أهل التمييز والعقل. وبناء فعل قيل للمفعول هنا اختصار لظهور فاعل القول، لإضفاء السرعة على الصورة؛ «لأن مثله لا يصدر إلا من الله. والقول هنا أمر التكوين. وخطاب الأرض والسماء بطريقة النداء وبالأمر استعارة لتعلق أمر التكوين بكيفيات الأفعال في ذاتيهما وانفعالهما بذلك كما يخاطب العاقل بعمله فيقبله امتثالاً وخشية. فالاستعارة هنا في حرف النداء وهي تسمية»^(١).

والصورة جاءت على وجه الحقيقة وليس المجاز، للتدليل على عظمة المنادي، وسرعة استحابة المنادي. فالسماء والأرض امتلنا لأمر الله كي ترسو السفينة بسلام، وكان هذه الآية جاءت لتجسد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

(١) التحرير والتنوير، ٧٨/١٣.

وبذلك تكون الآية أمموذجاً للتصوير البليغ، الذي تضمن في كلمات قليلة امرأةً ونهياً وإخباراً ومناداةً ونعياً وتسميةً وإهلاكاً وإبقاءً وإسعاداً وإشفاءً وقصصاً^(١) والذي كشف عن اقتصاد وإيجاز على مستويات ثلاثة: صوتي ولغوي ونحوي، وفي المقابل نجد اتساعاً وشساعة في الدلالة والجمال، ما يحقق المتعة والفائدة.

وفي قصة زكريا الواردة في سورة مريم، يقدم الله عز وجل مشهداً مؤثراً، يصور فيه عبده حين يلجأ إليه داعياً، شاكياً ما ألم به من ضعف وقلة حيلة، ثم إجابته تعالى للدعوة، وإن انقطعت الأسباب، تصويراً لرحمة الله ولعظمته وقدرته، وأن لا ملجأ منه إلا إليه، وذلك في قوله تعالى:

﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿١﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءً خَفِيًّا ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٣﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٤﴾ فَرِئْتَنِي وَرِئْتَنِي مِنْ عَالٍ يَعْفُوبًا ﴿٥﴾ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ بِنَزَكِينًا إِنَّا نَبِّئُكَ بِفُلَانٍ آسَمُهُ بِحَبِي لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْدٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لِسَالِي سَوِيًّا

(١) انظر: السيوطي، الإقنان في علوم القرآن، ص ٧١.

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾
 ﴿ وَيَجِيئُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾
 ﴿ وَرِزْقًا كَثِيرًا ﴾ ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ ﴿ وَسَلَّمَ ﴾
 عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿ (مرم: ٢-١٥).

وقد مهد الله عز وجل لهذه الصور القصصية بتأكيده على رحمة الله وسعة إحسانه بعباده، وبتقديمه لآداب الدعاء، حين ذكر نداء زكريا لربه نداء خفياً. ثم تلا التمهيد مباشرة دعاء زكريا، الذي جمع بين الصورة المادية المحسوسة وبين الصورة المعنوية والنفسية، فهو زواج بين ضعف عظمه وانتشار بياض الشيب في رأسه انتشار النار في الهشيم وعقم امرأته، وبين خوفه من الموالي أن يضيعوا شريعة الله، يقول ابن كثير، في تفسيره: «وجه خوفه: أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً، يكون نبياً من بعده؛ ليسوسهم بنبوته وما يوحي إليه، فأجيب في ذلك».

وحين جاءت البشرية لزكريا عاد يسأل ربه في صورة خاشعة، طلباً للطمأنينة، وإظهاراً للتعجب من قدرته، مثلما سأل إبراهيم ربه: ﴿ أَرِنِي ﴾ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتِينَ ﴿ (البقرة: ٢٦٠)، وجاء الجواب، الذي يفتح للمتلقي صوراً شاسعة من قدرة الله تعالى على الخلق والإبداع والاستجابة، والإشارة إلى أن حزائن الله تعالى لا تعد ولا تحصى، وما على العبد إلا الإذعان له عز وجل، المصاحب بالعمل الصالح كي يُمنح عطاءه، فزكريا دعا الله أن يرزقه ولداً

مرضياً، فاستجاب له ربه بمنحه ولذا يجمع عدداً من الصفات الحسنة، التي تجاوزت ما طلبه.

وقصة زكريا في هذه السورة وردت عبر صور بلاغية جميلة، عبرت عن حالته الواقعة بين الخوف والرجاء، اتخذها كثير من البلاغيين مناط تحليلهم، لما تثيره في ذهن المتلقي من حركات تخيلية، ولسات يانية تكشف عن عظمة الخالق الرحيم، ومدى حاجة الإنسان إليه في جميع حالاته. وختمها عز وجل بمخاطبة يحيى بشكل مفاجئ: ﴿يَنبِئُكَ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، ثم بالعدول عن مخاطبته للحديث عن ذاته العلية، التي سوت يحيى بصفات معينة، ﴿وَمَا آتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾، وهذا التغيير في أسلوب الخطاب يحدث هزة نفسية وفكرية للمتلقي بحجم الدلالات، التي توحى بها الصورة.

وإذا كانت قصة زكريا وردت على شكل صور حوارية، فإن قصة مريم، التي حملت السورة اسمها، زواجت بين السرد والحوار. وأول ما قدم به السرد القرآني مريم صورتها وهي في حالة استقرار وطمأنينة، حيث اتخذت لنفسها مكاناً منعزلاً، تخلو فيه مطمئنة دون أن يراها أحد، يقول تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿٥٧﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ (مريم: ١٦-١٧).

ويكسر السرد هذا الاستقرار بانتقاله على نحو مفاجئ إلى حدث غير متوقع لمريم، فها هي في خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها بنفسها، حين تجد نفسها أمام رجل كامل. ومن هول المفاجأة تنتفض مريم، وتلجأ مباشرة إلى الله تعالى تستعيذ به وتستنجد، وفي الوقت نفسه تحاول إثارة مشاعر التقوى في نفس الرجل، الذي فاجأها فتقول: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (مريم: ١٨)، وهنا يتحول السرد إلى مشهد حوارى غريب، فيأدر الرجل بمفاجأتها المفاجأة الأخرى فيقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (مريم: ١٩)، فتسأله بتعجب ودهشة عبر صورة صريحة: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (٢٠)، أي تسأل كيف يمكن أن تأتي بالولد وهي منغزلة عن الناس ولم يمسه أي واحد، وليست بذات زوج، ولا يتصور منها الفجور والبغي، فيجيبها الرسول المرسل من الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ (٢١)، فأمر الحمل والولادة لم تتصور مريم أن يحدثان إلا بالاتصال المباشر بين المرأة والرجل، لكن في حالة مريم، عليها السلام، كان ذلك على الله هين وسهل، لأن قدرة الله تقول للشيء كن، فكان منها غلاماً زكياً هو عيسى، عليه السلام، دون نطفة كما هو شأن كل البشر.

ويتهي الحوار بين الرسول المرسل من الله تعالى وبين مريم. ولا يذكر لنا السياق القرآني سوى أن حملها ﴿وَوَكَاتُ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم: ٢١)، أي أن هذا الغلام، الذي سيكون آية للناس ورحمة من الله قد انتهى أمر حملها، وتحقق

وقوعه، أما كيف حصل ذلك فلا يذكر القرآن الكريم عن ذلك شيئاً؛ لأن السرد القرآني يختصر الأزمنة، ويطوي الأحداث فلا يذكر منها إلا ما يفيد السياق والغرض من القص.

ثم يمضي السرد ليعرض مجموعة من الصور القصصية، يقول تعالى:

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٣﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾ (مریم: ٢٣)،

فهذه الصورة تكشف عن الهزة، التي انتابت مريم العذراء وهي تحمل بسيدنا عيسى، عليهما السلام، وتخيل هول المواجهة، التي ستواجه بها المجتمع وحيدة، لأنها كانت تعرف أنها سوف تبلى وتمتحن بهذا المولود من قبل قومها.

وإلى جانب هذه الآلام النفسية، التي تتأبها من المواجهة، يجيئها المخاض، وتتأبها الآلام الجسدية، آلام الولادة، فتستند إلى جذع النخلة، تتكى عليها، تعاني من الآلام والأحزان حتى تمنى الموت، وتقول: ﴿ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ﴾، وفي غمرة الآلام والوحدة والخوف تقع لها المفاجأة الكبرى، يقول تعالى: ﴿ فَانذَرْنَاهَا مِنْ نَحْيِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٥﴾ وَهَرِيءَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٦﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ (٢٤-٢٦).

هذه هي المفاجأة، التي هدأت من روع وحزن مريم، فقد سمعت طفلها يتكلم من تحت النخلة، التي ولدته إلى جوارها، وقال لها من تحت النخلة أن لا تحزني لهذا الأمر، قد جعل الله لك جدولاً يجري أمامك، وحركي جذع النخلة فيتساقط عليك الرطب الطري الشهوي، أي الثمرات الناضجة، وكلّي منها كي تتقوي، وبالإضافة إلى الثمر طلب المولود من مريم أن تشرب الماء العذب، الذي جرى تحتها، وأن تطيب نفساً ولا تحزن، كما طلب منها إذا رأت أحداً من الناس وسألها عن شأن المولود فلتقل له «إني نذرت السكوت والصمت لله تعالى ولن أكلم أحداً من الناس». ولتدع الله تعالى الباقي.

وحين تسمع مريم هذا الكلام، تنزل عليها السكينة والطمأنينة، فتأكل وتشرب، وتقرّ عينها، ويذهب روعها وحزنها، وتعلم أن ما حدث معجزة فضّلها الله تعالى بها ولن يخذلها عزّ وجلّ. واتبعت مريم ما طلب منها، ولم تكذب تلمس جذع النخلة حتى تساقط عليها ثمراً شهياً.. فأكلت وشربت ولفت الطفل في ملابسها، وخرجت به من خلوتها، ولاحظ الناس أنها تحمل طفلاً، تضمه لصدرها وتمشي به، ولا شك أن قومها انتابهم حيرة وتساؤلات كثيرة حول ما شاهدوا، حسموها باتهام صريح لها كما جاء في القرآن الكريم:

﴿يَتَأَخَذَ هٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوْكَ اٰمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ اُمُّكَ بِغِيًّا ۝﴾ (مريم: ٢٨)، وتتأهم الدهشة، فيسألون في تعجب واستنكار: ﴿يَنْمَرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝﴾ ﴿يَتَأَخَذَ هٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوْكَ اٰمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ اُمُّكَ بِغِيًّا ۝﴾ (مريم: ٢٧ - ٢٨)، إن الهزة أطلقت ألسنتهم بالسخرية والتهمك

على (أخت هارون)، وفي تذكرها بهذه الأحوال ما فيه من مفارقة، فهذه حادثة في هذا البيت لا سابقة لها، لذا أشاروا إلى أبيها.

وتتصاعد وتيرة الحدث وتتأزم، ومرم تخلد للصمت في مواجهة الاتهامات، وتشير إلى طفلها، ويبدو أنها كانت مطمئنة لتكرار المعجزة أمامهم، لكن القوم يزداد تعجبهم واستنكارهم، وهم يترجون عذراء تواجههم بطفل كي يكلمهم، ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾ (مريم: ٢٩) (١).

وفي مشهد مشير تكلم ذلك الغلام مُبعداً عن أمه كل خطيئة، مظهراً طهرها وعفتها ومكانتها عند الله عز وجل: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ (مريم: ٣٠-٣٣).

وتنتهي قصة مريم في القرآن هنا، يختتمها عز وجل بقوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰنَهُ ؕ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ (٣٤-٣٦)، ليؤكد عبودية عيسى ومرم له تعالى، وأن عبادته وحدها هي الصراط المستقيم، وهي نهاية مناسبة لآية أخرى ورد فيها إشارة إلى مريم، عليها السلام، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ

(١) ابن كثير، ٥/٢٢٨.

مِنْ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَجِيِّ لَّهُمْ أَبْنَتْ لَنَا مَلَائِكَةً
نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ
أَلَّا تَقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ
وِطْرِنَا وَأَبْنَاؤِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ٢٤٦﴾.

مشهد يعتمد على السرد والحوار لتفهم مجموعة من الصور التعبيرية،
التي تكشف حقيقة ادعاء القوم استعدادهم للقتال في سبيل الله، لكن
حين يضعهم نبيهم أمام الأمر الواقع يظهر نفاقهم وتفاعسهم، وتأتي لفظة
﴿تَوَلَّوْا﴾ وتذييل ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ لتعميق صورة الإعراض
والإدبار من فضاء المعركة، وما يتبعها من ظلم للنفس وللأمة، ولشتر في أعماق
المتلقي حالات من النفور والاشمزاز.

وتسأل مشاهد الكبر والظلم والإعراض في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ
الْمَلَكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ
إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنِي عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ
يُؤْتِي مَلَكُومَ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ
إِنَّ آيَةَ مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ
وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَهَٰؤُلَاءِ كَانُوا مَوْتَمِرِينَ ﴿٢٤٨﴾
الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٧-٢٤٨﴾.

من خلال هذا الحوار أخبرهم نبيهم أنه تقرر تعيين طالوت ملكاً عليهم، لكنهم تابعوا اعتراضهم، لما جبلت عليه أنفسهم من التولي عن الحق، واعتبروا أنه لا يستحق الملك مادام لا يملك الانتماء الاجتماعي للطبقة الغنية، ويرون أنهم أحق بالملك منه، ولا يخفى ما في هذه الصور الحوارية من كبر واستعلاء على الناس واحتقار لمن دونهم. وفي هذا جدال عقيم، واشتغال عن المعركة الحقيقية، بصراعات مصلحة، تضر بالصالح العام. لكن الله رد على اعتراضهم المبني على موازينهم الأرضية البشرية، وأكد أن تعيين طالوت تم وفق ميزان رباني دقيق لا يحايي أحداً، ويعتمد على القوة والعلم.

ومن أبلغ الصور تأثيراً على النفس صورة القرية الفارغة وما تثيره في النفس الإنسانية من مشاعر التعجب، ثم الصورة العجائية للمتسائل خلال نومه مائة عام، ومشاهدته لقضية البعث في قوله تعالى: ﴿أَوِ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْجِبُ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَيْثٌ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّيْسَ بِمِائَةِ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّأْ وَانظُرْ إِلَى جِمَازِكَ وَرَجَعَلِكُمْ ءَايَةٌ لِلنَّاسِ ۗ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ (البقرة: ٢٥٩).

فالله تعالى يعرض صوراً حسية مليئة بالحركة والتدرج، تستثير المشاعر، مكرراً لفظة «انظر»، ولعل القصد منها النظر العقلي، أو البصيرة، وليس النظر

البصري، لإقناع المتلقي، حيث كان البعث دليلاً واضحاً على القيمة العقديّة، التي بُنيت القصة في كليتها لإقرارها في النفوس.

ومن أروع الصور القصصية، التي تحرك النفس وتسمو بها نحو آفاق القيم، ومعارض العبادة الحقّة، قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرزِجٍ أَخْرَجَ سَطَكُمُ فَتَازَرْتُمْ فَأَسْتَظَلَّ فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِمْ يُعْجِبُ الرِّزْقَ لِيَغِيبَ بِهِنَّ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢٩)، صورة تقابل بين الشدة والرحمة، بين الكفر والإيمان، لتقدم صفات رسول الله ﷺ وصفات المصاحبين له، التي نجدها في كل الكتب السماوية، يشبههم بالزرع الناضج المستوية حباته بهاءً ونماءً.

إن القصة القرآنية استطاعت تصوير النفس الإنسانية في مختلف حالاتها ونزعاتها الثابتة والمتغيرة والطارئة، وتشخيص أبعادها المتنوعة والمتشعبة والمعقدة، كما استطاعت تشخيص مظاهر الطبيعة والكون فكانت بمثابة المعبر، الذي يوصل المتلقي إلى أبعاد جمالية ودلالية، تفضي به نحو الهداية وتصحيح العقيدة.

المبحث الثالث

جمالية الإيجاز والحذف

الإيجاز لغة الاختصار والتقليل، وفي الاصطلاح هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، مع وفائها بالغرض المقصود ورعاية الإبانة والإفصاح فيها، أي «دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه، والتطويل ضد ذلك»^(١). وقد عرفه السكاكي بأنه «أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط»^(٢). ويأتي الإيجاز على قسمين: إيجاز القصر، ويسمى إيجاز البلاغة، وذلك بأن يتضمن الكلام المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف، وإيجاز الحذف، وذلك بأن يحذف شيء من العبارة، لا يخل بالفهم، مع وجود قرينة. أما الحذف في اللغة، حذف الشيء يحذفه حذفاً قطعاً قطعه من طرفه، والحذف الرمي عن جانب، وحذف الشيء إسقاطه^(٣).

وقد اهتم العرب بدراسة ظاهرة الحذف في النص الأدبي، يقول عبد القاهر الجرجاني: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر؛ فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً

(١) عبد الرحمن بودرع، الإيجاز وبلاغية الإشارة (تطوان: مطبعة الخليج، ٢٠٠٩م) ص ٢٩.
(٢) مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م) ص ٢٧٧.
(٣) انظر: الصحاح في اللغة، ١/١٢٠.

إذا لم تين»^(١)، ويطلق أحياناً على الحذف الإضمار^(٢)، وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر^(٣).

والإضمار هو الإخفاء والتغيب. ويرى ابن الشجري «الحذف اختصاراً من أفصح كلام العرب، لأن المحذوف كالمنطوق به من حيث كان الكلام مقتضياً له»^(٤).

وقد تعددت المصطلحات وتفرقت التعريفات للإشارة إلى مفاهيم الإيجاز والحذف عند البلاغيين والنحويين، فهناك الإيجاز والحذف والاختصار والتكثيف والإضمار والقصر والإشارة والتلميح وغيرها، لكننا لن ندخل إلى تعريف هذه التفريعات والتفاصيل، وإنما حسبنا دراسة الإيجاز والحذف باعتبار تلازمهما في القرآن الكريم، وباعتبار أنهما يؤديان معنى واحداً يشير إلى التكثيف وإسقاط الزوائد، ويعبر عن صورة من صور البلاغة في القرآن الكريم، وفي القصة القرآنية بصفة خاصة، تتميز بالتركيز، والوصول إلى جوهر المعنى عبر القول الموجز والإشارة الدالة. تُستثنى من ذلك بعض الآيات، التي اقتضى البيان الإلهي أن تأتي بشكل مفصل، لكنه تفصيل لا يحتمل التركيب فوق ما يحتمل المعنى أو يقتضيه السياق.

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ١/١٢١.

(٢) انظر: بدر الدين الزركشي، البحر المحيط، في أصول الفقه، تحقيق: عبد القادر عبد الله العائني، ١/٦٤٣.

(٣) شهاب الدين أحمد الخفاجي المصري، عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (بيروت: دار صادر).

(٤) الأمالي، ابن الشجري، تحقيق، محمود الطناحي، ط ١ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٣م) ٢/١٢٣.

لذا، فإن محاولة الكشف عن جمالية الإيجاز والحذف في نماذج من القصص القرآني يكون عز الطلب ومنتهاه، خاصة ملامسة ما يحقق أكبر قدر ممكن من التأثير على المتلقي، فيجئ نحو المشاركة في تقدير ما حذف وما أوجز، والتوصل إلى عمق الدلالات، والافتناع بها، وكأنه توصل إلى ذلك من تلقاء نفسه، وظهرت على يده لا على يد مخاطبه^(١).

ومن أجل ما وقفت عليه من إيجاز في القصة القرآنية، اختصاره تعالى لقصة أهل الكهف وتمهيده لها في ثلاث آيات بينات في قوله تعالى:

﴿أَمْرٌ حَسِينٌ أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَهُمْ لِتَعْلَمَ أَيُّ الْجَرْيِينَ أَحْسَنُ لِمَا لَيْسُوا أُمَّدًا ﴿١٢﴾﴾ (الكهف: ٩-١٢).

فلنتأمل لبلاغة القصص في هذه الآيات يجد إيجازاً لقصة متكاملة، فيها ذكر لجوء الفتية إلى الكهف، وهدفهم، وتوجههم إلى الله تعالى ودعائهم له، وخروجهم بعد ذلك، والإشارة إلى طول مكثهم فيه، ثم بعثهم بعد ذلك، واختلاف الناس في شأنهم، قبل أن يورد القصة كاملة ابتداء من قوله تعالى:

﴿يَخْتَنُ نَقْصُ عَلَيَّكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴿١٣﴾﴾ والتي حفلت بمعان ودلالات شاسعة على قلة ألفاظها وإيجاز سرد أحداثها وحذف تفاصيل منها في مواطن

(١) انظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ط ١ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م) ص ١٥٠.

كثيرة، إما من أجل ترك فسحة من التأمل والتخييل للمتلقي للملء الفجوات بما يناسب فهمه وتدبره، أو لأن السياق غير معني بذكر ما من شأنه عدم إثراء المقاصد الجمالية والدلالية، التي تسعى إليها القصة.

ومن أبلغ القصص القرآني، التي نجد فيها ظاهرة الحذف والإيجاز بشكل بين، قصة سليمان، عليه السلام، في سورة النمل. افتتحها الله عز وجل بالإشارة إلى الجن والإنس والطير ودورهم فيما سيأتي من أحداث، وبالإشارة إلى دور العلم وأهميته في التمكين والخلافة في الأرض، وهذا ملمح فني ومعرفي دقيق في القصص القرآني، تم توظيفه قبل البدء بسرد القصة في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَطِيقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾. ثم تبدأ القصة بقوله تعالى: ﴿وَحُخِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، ليدخل مباشرة لسردها بـ ﴿حَتَّى﴾، وهي حرف غاية لحذف تقديره فساروا حتى إذا أتوا، يقول تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّعْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّعْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحِطُّبَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾، وفي الآية إيجاز بالحذف بليغ؛ لأن أصله:

ادخلوا في مساكنكم، فحذف منه (في) تنبيها على السرعة في الدخول.

يقول السيوطي: «فقد جمع في هذه أحد عشر جنساً من الكلام؛ النداء

والكناية والتنبيه والتسمية والأمر والقصص والتحذير والتخصيص والتعميم

والإشارة والعدر. فالنداء: يا، والكناية: أي، والتنبيه: ها، والتسمية: النمل، والأمر: ادخلوا، والقصص: مساكنكم، والتحذير: لا يحطمنكم، والتخصيص: سليمان، والتعميم: جنوده، والإشارة: وهم، والعدر: لا يشعرون»^(١).

وفعل التحطيم^(٢) فيه من الإعجاز والبلاغة والدقة ما يجير الألباب.

ويتابع السرد قص ردة فعل سليمان، عليه السلام، حين سمع كلامها:

﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩)، وتبَسُّم سليمان، عليه السلام، تبسُّم تعجب من أنها عرفت اسمه، وأنها قالت: وهم لا يشعرون، فوسمته وجنده بالصلاح والرأفة، وأنهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة، وهذا تنبيهها له وداع لشكر ربه على النعم، التي أنعمها عليه، ودعوته^(٣)، بتعبير «يشي بنعمة الله، التي مست قلب سليمان، عليه السلام، في تلك اللحظة ويصور نوع تأثره، وقوة توجهه، وارتعاشه وجدانه، وهو يستشعر فضل الله الجزيل، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه، ويحس مس النعمة والرحمة في ارتياح وابتهاال»^(٤).

(١) السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ص ٤١٧.

(٢) حطم يعني كسر، وقد ثبت علمياً أن جسم النمل يتركب معظمه من كمية كبيرة من السليكون، الذي يدخل في صناعة الزجاج، والتحطيم هو أنسب الأوصاف للفعل الدال على التكسير والتهشيم، نقلاً عن موقع:

www.islamiyyat.com/lamsat-aya2.html

(٣) انظر التحرير والتوير، ج ٢٠.

(٤) في ظلال القرآن، ١٩/٢٦٣٧.

وينتقل السرد بشكل بديع مفاجئ إلى حدث آخر من أحداث القصة في قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِزِينَ ﴿٢٠﴾ لِأَعْدَبْتُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَتْ عُيْرٌ بَعِيدٌ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَحِشْتِكَ مِنْ سَيِّئِ يَدِّي إِذْ يَقِينُ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (٢٠-٢٤).

ففي الآيات مجموعة من الصور القصصية تقص ما حدث لسليمان، عليه السلام، مع الهدهد وسبب غيابه عن موقعه، ولفظة ﴿وَتَفَقَّدَ﴾ توحى بدلالات كثيرة، منها حرص سليمان، عليه السلام، على متابعة رعيته وجنوده، وخاصة المقيمين في المواقع الحساسة، وحين لم ير الهدهد توعدده بالعقوبة الزاجرة إذا لم يأت بدليل مقنع عن سبب غيابه؛ لأن المقام مقام أمن دولة وسلامة أمة، والتسامح في النهاون والخطأ قد يؤدي إلى ما لا يحمد عقباه، لذا جاء الوعيد بالتأكيد بلام القسم ونون التوكيد. ولم تطل مدة محاكمة الهدهد، ووقفه أمام سليمان، عليه السلام، وتقدم مسوخ غيابه.

وتم التعبير عن ذلك بأسلوب موجز ﴿فَمَكَتْ عُيْرٌ بَعِيدٌ﴾، وهذا غاية في الإعجاز البياني، لأن المكث يستخدم للمدد القصيرة، كما أن الإحاطة بالشيء تعني الإلمام بكل جوانبه، فكانت ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ﴾ تنبيهاً

لسليمان، عليه السلام، وللمتلقي أن الإنسان مهما أوتي من العلم والمعرفة فإنه يحتاج إلى المزيد، ليكتشف الجديد. وما جاء به الهدهد، ليس لغو الكلام، وإنما نبأ يقين مفاده أن هناك قوماً في مملكة سبأ، تحكمهم امرأة، ويعبدون غير الله، وفي هذا من المفاجأة والخطورة ما يجعل سليمان، عليه السلام، يبادر لمعرفة مدى صدقه.

وفي إيجاز يكشف الهدهد بكناية بدیعة غنى مُلك المرأة وتوفر أسباب القوة والمادة لديها، فهي ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، ويكرر فعل ﴿وَجَدْتُ﴾ للدلالة على تعجبه من ذلك، فرغم ما امتلكته من ملك وعظمة مادية، فإنها تسجد لغير الله، وهذا ما أربك الهدهد وجعله يتعجب، ويبادر إلى إخبار نبي الله سليمان، عليه السلام.

وما يلتفت الانتباه في هذا المجال، حذف اسم المرأة، وذكرها بجنسها وصفتها، وكذلك الأمر بالنسبة للنساء الوارد اسمهن في القرآن الكريم، باستثناء مريم، وهذا يعني أن القرآن الكريم يأتي بنماذج يمكن أن توجد في أي زمان ومكان، ويستوعب تواجهها كل الأبعاد الشمولية للحياة، باعتبارها ثقافة وقيماً، فلا يتم التركيز على الأسماء والصفات الجسدية في حد ذاتها، بقدر ما يتم التركيز على القيم والرؤى والمواقف. ودون أن يعرف المتلقي تفاصيل ما حدث بعد ذلك، باستثناء الوعيد المبطن في خطاب سليمان، عليه السلام، باستخدام المفارقة بين تيجتي الصدق والكذب، ينتقل السرد بسرعة إلى أحداث أخرى: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ نَوَّلَ عَنْهُمْ فَأَنْظَرُوا مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨).

نلاحظ في الآية، كما هو الشأن في القرآن كله، الدقة في استخدام الألفاظ للدلالة على الموقف بمنتهى الضبط، فسلیمان، عليه السلام، قال:

﴿قَالَتْ إِنَّهُمُ﴾ للتعبير عن سلوك الطير في إيصال الكتاب.

ويتهى هذا المشهد دون أن يعرف المتلقي أي شيء عن فحوى الكتاب، ليعلن السرد افتتاح مشهد آخر، في فضاء آخر: ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْمَلُوكُ إِنِّي آتِيَةٌ إِلَيْكَ بِكِتَابٍ كَرِيمٍ﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣١﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾ (٢٩-٣١)، كلمات قليلة تبين دلالات كثيرة، فالكتاب مصدر باسم الله، رغم أنه موجه من سليمان، عليه السلام، يطلب بلهجة موجزة وحاسمة عدم الاستعلاء، والطاعة.

وهنا تظهر سياسة الملكة مع قومها، فهي تستفتيهم، وتطلب الشورى منهم: ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْمَلُوكُ أَتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَاؤُا قَوْمِ وَأَوْلُوا بِأَبْنِ شَدِيدِ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذَانًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ (٣٢-٣٥)، ليتفقوا آخر الأمر على بعث هدية لسليمان، عليه السلام، لاختبار ردة فعله، وانتظار ما ستأتي به من نتيجة.

وهي نتيجة توصلت إليها بلقيس، بعد أن وظفت أسلوب المقاتلة بعبارات وجيزة مختصرة، بينت فيها حال العزة في رهن وقت الرسالة، وحال الذلة في المستقبل إن رفضوا طلب سليمان، عليه السلام.

ويرفع الستار عن مشهد آخر حين يتلقى سليمان، عليه السلام، الهدية، فينكر عليهم تقديمهم لأشياء مادية، وما عنده أعظم، ويعلن في إصرار وعيده لهم، وتحقيره هديتهم. وكأنه يعيب عليهم شراءه كي يتركهم على كفرهم:

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالِ أُمَّتِنَا مِمَّا آتَيْنَاكَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْنَاكَ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ نَفْحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾. وتكرار الفعل المتصل بنون التوكيد الثقيلة، يدخل المتلقي في عالم القوة والحسم.

وينتقل المتلقي إلى عالم عجائبي، فبعد حديث سليمان، عليه السلام، مع الهدهد، نفاجاً بجوار من نوع آخر، يستعرض فيه سليمان، عليه السلام، سرعة الاستجابة عند جنوده من الجن والعفاريت: ﴿قَالَ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ قَالَ عَفْرِيَّتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَأَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَأَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾، فقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه بالعرش قبل انقضاء جلسته هذه . وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروى، فاستطول سليمان، عليه السلام، هذه الفترة، فإذا ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعرض أن يأتي به في غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه^(١).

(١) انظر: في الظلال، ص ٢٦٤١.

ولا يذكر في السياق اسمه، ولا اسم الكتاب، الذي عنده علم منه،
 «إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله، موهوب سرّاً من الله. وهو أمر
 يشاهد أحياناً على أيدي بعض المتصلين، ولم يُكشف سره ولا تعليقه، لأنه
 خارج عن مألوف البشر في حياتهم العادية. وهذا أقصى ما يقال في الدائرة
 المأمونة، التي لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات»^(١).

وجاء السرد بعد ذلك بصيغة الماضي، على اعتبار أن العرش وصل
 وانتهى الأمر. وهذه السرعة المفرطة، التي أتى بها، لامست وجدان سليمان،
 عليه السلام: «واستشعر أن النعمة - على هذا النحو - ابتلاء ضخم مخيف،
 يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه، ويحتاج إلى
 معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه. والله
 غني عن شكر الشاكرين، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، فينال من الله زيادة
 النعمة، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء. ومن كفر فإن الله (غني) عن
 الشكر، (كريم) يعطي عن كرم، لا عن ارتقاب للشكر على العطاء»^(٢).

ويسترسل السرد في حكي الأحداث، التي وقعت بين سليمان وبلقيس:
 ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا
 جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشِي قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوَيْدِنَا أَلَعَلَّ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسِيَّبِينَ ﴿٤١﴾
 وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (٤١-٤٣).

(١) المرجع السابق، نفسه.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٤٢.

ويعرض السرد عن ذكر تفاصيل بحبيء ملكة سبأ، وكان الأمر مفروغ منه، ويدخل مباشرة في قصص مفاجأة سليمان، عليه السلام، لضيفته، واختباره لفطنتها وذكائها، حين يأمر بإخفاء معالم عرشها، ثم سؤالها بعد ذلك عنه بصيغة المبني للمجهول ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ؟﴾ ولم يقل: أهذا عرشك، لئلا يكون تلقيناً لها، فيقوت المقصود من الأمر بالتنكير، وهو الاختبار لعقلها، وبجيب الملكة بمجواب يعدل عن مطابقة الجواب للسؤال، ويحتمل النفي والإيجاب ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾. وهو جواب ينبيء عن راحة عقلها وفطنتها، قال ابن كثير: «وهذا غاية في الذكاء والحزم»^(١).

وتكفل الله عز وجل بالرد عن تساؤل محذوف، مفاده أنها ما دامت على هذه الدرجة من البصيرة والفطنة، فليَمَ لم تكن مسلمة؟ ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

وأراد سليمان، عليه السلام، بعد ذلك أن يطلع ضيفته على نعم الله عليه، فأعد لها قصرًا من البلور الملمس، أقيمت أرضيته فوق الماء: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُحَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤). ووقفت الملكة منبهرة بما رأت، وأدركت أن قوى أكبر من طاقة البشر مسخرة لسليمان، عليه السلام، فرجعت إلى الله، وأعلنت إسلامها مع سليمان لله رب العالمين.

(١) تفسير ابن كثير، ٦٧٣/٢.

ومن أبلغ القصص القرآني، التي تشحذ ذهن المتلقي، وتخرسه على البحث عن الدلالات الثابتة في بلاغة محذوفها وعمق إيجازها، قصة قابيل وهابيل. وهي على قصرها تشد المتلقي وتدفعه نحو ملء الفجوات، والتأمل فيها. يفتح تعالى القصة بدعوة محمد ﷺ إلى قص خنبر ابني آدم، حقاً وصدقاً، وهي دعوة يفترض القارئ من سياقها أن هناك أخباراً غير حقيقية شائعة عنهما: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ (المائدة: ٢٧)، دعوة قرآنية تلفت الانتباه إلى تحري الدقة والصدق والحق في نقل الخبر، ثم الدخول مباشرة إلى قلب الأحداث:

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧)، فالآية تتحدث عن طقوس عبادية يقوم بها أخوان، فهما معاً قربا قرباناً لله عز وجل، لكن تقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. فنوع العبادة القربان، وهو اسم جنس اشتق من قرب يقرب، أفاد التوكيد، وأفصح عن شحنة أسلوبية بسبب جناس الاشتقاق المغاير، الذي أدى المعنى بأوجز عبارة، ومنح آفاقاً رحبة بما توحى في النفس من مشاعر الطمأنينة والسلام والقرب من الله، رغم أن فعل القبول ورد بصيغة المجهول، إلا أن المتلقي يصطدم بمفاجأة الإعلان عن القتل. والفعل المبني للمجهول «يشير بناؤه هكذا إلى أن أمر القبول أو عدمه موكول إلى قوة غيبية، وإلى كيفية غيبية.

وهذه الصياغة تفيدنا أمرين:

الأول: ألا نبحت نحن عن كيفية هذا التقبل ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير في روايات نرجح أنها مأخوذة عن أساطير العهد القديم.

والثاني: الإيحاء بأن الذي قبل قربانه لا جريرة له توجب الحفيظة عليه وتبيت قتله، فالأمر لم يكن له يد فيه، وإنما تولته قوة غيبية بكيفية غيبية، تعلق على إدراك كليهما وعلى مشيئته. فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه، وليجيش خاطر القتل في نفسه. فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة في هذا المجال، مجال العبادة والتقرب، ومجال القدرة الغيبية الخفية، التي لا دخل لإرادة أخيه في مجالها»^(١).

وفي الحوار يتصاعد الحدث إلى نقطة الذروة، ويصل الصراع بسرعة إلى مجال القتل، ويقع حذف وإضمار عدد من المعطيات المتعلقة بوصول الإنسان إلى هذه الدرجة من الشر والغل حتى يقدم على قتل أخيه.

ورغم التأكيد الوارد في لفظة ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، إلا أن هاييل يحاول أن يواجهه بنفسه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وهي عبارة توحى بظلال كيفية من الحزن والأسى على عدم تقوى أخيه، وهنا تتبين نفسيته المسالمة المغايرة لنوازع الشر والحقد في قوله: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٢٨-٢٩).

(١) في ظلال القرآن، ١/٨٧٥.

فهذا الحوار الموجز يلخص هوية الأخوين وطبيعة كل منهما الفكرية والنفسية.

ولا تنتهي القصة هنا، وإنما يسرد الله عز وجل تنفيذ عملية القتل والتي انبعثت نيتها من داخل النفس، دون أي تأثيرات خارجية: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُمْ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٣١﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِرَبِّهِمْ كَيْفَ يُؤَرِّى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُؤْتِلْنِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَرِّى سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٠-٣١﴾، ويقتحم بنا القرآن الكريم فطرة الإنسان، التي يؤوب إليها، لتنازعه نفسه ويندم على ما ارتكبه في حقها، ويقدم صورة للضعف والعجز، بكلمات قليلة، ودلالات واسعة. فمهما كان الإنسان جباراً قاتلاً، فهو عاجز أمام جهله ونفسه.

ويلتقط السياق الآثار العميقة، التي تركها في النفس رواية القصة بهذا التسلسل الموجز، «ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع، الذي فرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم، أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص، التي تنتظره: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ من أجل ذلك، من أجل وجود هذه النماذج في البشرية، من أجل الاعتداء على المسالمين الوداعين الخيرين الطيبين،

الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً، ومن أجل أن الموعدة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر، وأن المسألة والمواعدة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس، من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً، وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً^(١).

فالإيجاز والتكثيف في القصة جاء أبلغ من التفصيل والإطناب؛ لأن الغاية الأساس تنبيه البشرية إلى التشريع والأحكام الإلهية.

ومن أجل القصص، التي تبرز فيها جمالية الحذف والإيجاز قصة لوط، ووردت في سلسلة القصص، التي تعرض مصائر الأمم الممزقة البائدة، مثل قوم نوح وهود وصالح، وارتبطت بقصة إبراهيم، واستدعت إحداها الأخرى، في مفارقة بين الولادة والإبادة.

فالملائكة، الذين جاؤوا يبشرون امرأة إبراهيم بالولد، أتوا بنذير العذاب

المرسل إلى قوم لوط: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا يَوْمَ وَصَّاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٥٦﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْقِ النَّاسِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٥٧﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٥٨﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِيَةٌ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٥٩﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ

(١) انظر: في الظلال، ص ٨٧٧-٨٧٨.

يَقْطَعُ مِنَ الْبَيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكَتَ إِنَّهُ مُصِيبًا مَّا
 أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
 جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُورٍ ﴿٧٨﴾
 مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾ (هود: ٧٧-٨٣).

وقد اختصر السياق هذا المشهد بين لوط والملائكة فحذف ما كان من
 قومه حين علموا بأن ضيوفاً نزلوا على لوط فهرعوا إليه، ولكن الأسلوب
 استعاض عن المحذوف بإظهار المساءة، التي أصابت لوطاً حين جاءته
 الملائكة، وتصوير ضيق ذرعه عن بسط الحماية عليهم، ثم إن الواو في ﴿وَقَالُوا
 لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ (العنكبوت: ٣٣) تدل على أن ثمة حذفاً في السياق؛
 لأن الواو لم يتقدمها معطوف عليها. كما يظهر التأكيد الشديد في توظيف
 القرآن للمقابلة بين عاليها وسافلها للدلالة على التدمير والهلاك، الذي أصاب
 قوم لوط.

وقد يوظف القرآن حذف مدة زمنية معينة، أو يقفز عليها، كأن يقفز
 من زمن القصة إلى زمن الآخرة، خاصة في السور، التي تناولت الإشارات
 أو الشذرات القصصية فقط، كما في سورة النازعات والعنكبوت،
 اللتين لم تفصلا في قصة موسى، عليه السلام.
 وغاذج الحذف والإيجاز كثيرة في القصص القرآني، من الصعب حصرها،
 تنبه فكر المتلقي، وتوقظ وعيه، ليستقبل مختلف المقاصد، التي يستشفها من
 السياق، ومما سكت عنه السرد أو أوجز فيه أو قفز عليه، خاصة، إذا امتلك
 أدوات لغوية وبلاغية، وحساً جمالياً، تمكنه من التأمل والتدبر.

الخاتمة

تعرضت هذه الدراسة لبلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي، من خلال نصوص القصص القرآني، الذي يمثل ثلث القرآن، بأدوات لغوية وبلاغية ونصية، تحاول الإشارة إلى مكامن الجمال في بلاغته، ورونق أسلوبه، ووحدة بيانه، وتكامل خطابه.

ومن النتائج المستخلصة من الدراسة:

- جمالية التلقي تتشكل من خلال امتزاج البناء الفني، ومقاصد الرؤية الموضوعية الدعوية، وتعتمد على تقنيات بالغة الإعجاز والروعة. واستحضار المدخل البلاغي في الفهم والاستنباط والتأمل، يكشف عن ثروة متجددة من المعاني والدلالات والبيان المعجز.

- شساعة التنوع في أسلوب الخطاب وبلاغة القص، فالقصص القرآني لا تجري على نمط واحد، وإنما حسب السياق، وما يلائم مقتضى الدلالات وطبيعة المخاطب.

- تأكيد القصص القرآني على اعتبار الوظيفة الرسالية للرسول والأنبياء واحدة، وقضيتهم قضية واحدة، هي توحيد العبودية لله، وأنها نماذج منتقاة من رب العزة، للتفاعل معها.

- رغم انتهاء السرد في القصة القرآنية، فإن ظلالها لا تنتهي، بل تستكمل رحلة بيانها في بناء آفاق وفضاءات، مرتبطة مع باقي القصص القرآني، لتحقيق الوحدة الشمولية، تحت المتلقي على المزيد من التأمل والتدبر، وإنزال دلالاتها ومعانيها على أرض الواقع، من أجل ترشيد المسيرة وتصحيح السلوك، وإعادة صياغة نفسه وفق هديها.

والله الموفق والمهدي إلى سواء السبيل في الفهم والعمل والسلوك.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	* تقديم: الأستاذ عمر عبيد حسنه
٢٣	* مدخل
٣٧	* الفصل الأول: المادة القصصية ومقاصد تلقيها
٣٧	- المبحث الأول: المادة القصصية في القرآن الكريم
٥٥	- المبحث الثاني: مقاصد التلقي
٧٧	* الفصل الثاني: بلاغة القص وجمالية تلقيه
٧٧	- المبحث الأول: جمالية الانسجام والتناسب
١٠٥	- المبحث الثاني: جمالية التصوير والتشخيص
١٢٥	- المبحث الثالث: جمالية الإيجاز والحذف
١٤١	* الخاتمة
١٤٣	* الفهرس

وكلاء التوزيع

عنوانه	رقم الهاتف	اسم الوكيل	البلد
ص.ب: ٨١٥٠ - الدوحة فاكس: ٤٤٤٣٦٨٠٠ - بحوار سوق الخبر	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	دار الثقافة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	قطر
ص.ب: ٢٨٧ - البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٢ (ملعب عيسى)	مكتبة الآداب	البحرين
ص.ب: ٤٣٠٩٩ - حول شارع للنبي رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤	٢٦١٥٠٤٥	مكتبة دار المنار الإسلامية	الكويت
ص.ب: ١٩٦٠ - روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨	٧٨٣٥٦٧٧	مكتبة علوم القرآن	سلطنة عمان
ص.ب: ٢٣٧١ - عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣	٥٣٥٨٨٥٥	شركة وكالة التوزيع الأردنية	الأردن
ص.ب: ٥٤٤ - صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣	٧٨٠٤٠ - ٧١٣٦٣ ٢٧٠٢٨ - ٧٥٨١١	مجموعة الجيل الجديد	اليمن
ص.ب: ١١١٦٦ - الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١	٤٦٦٣٥٧	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان
ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر - القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة	مصر
نخج موناستير رقم ١٦ - الرباط	٧٣٣٣٢٩	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	المغرب
القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية - الروبة - الجزائر	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	دار السوعي للنشر والتوزيع	الجزائر
Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680	(01) 272-5170/ 263-3071	دار الرعاية الإسلامية	إنكلترا

ثمن النسخة

الأردن	فلس (٧٠٠)
الإمارات	درهم (٥)
البحرين	فلس (٥٠٠)
تونس	دينار واحد
السعودية	ريالات (٥)
السودان	قرشاً (٥٠)
عمان	بيسة (٥٠٠)
قطر	ريالات (٥)
الكويت	فلس (٥٠٠)
مصر	جنيحات (٦)
لغزب	درهم (١٠)
الجزائر	ديناراً (١٢٠)
اليمن	ريالاً (٤٠)
* الأمريكان وأوروبا وأستراليا وياتي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.	

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة - الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

موقعنا على الإنترنت:

www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة
الشيخ محمد بن عبد الله الثاني

الوقفية العالمية المحكمة

إسهاماً في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي

الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء،

تطرح لعامها الثالث عشر موضوع

المواطنة وفقه الانتماء

آخر موعد لاستلام البحوث كانون الثاني (يناير) ٢٠١٧م

قيمة الجائزة (٢٠٠) ألف ريال قطري



الإدارة العامة للأوقاف
General Directorate of Endowments

برعاية الإدارة العامة للأوقاف

• المحاور:

- مدخل: تحديد المفاهيم: الوطن؛ المواطنة، الوطنية؛ الانتماء؛ الولاء؛ البراء؛ القومية؛ القطرية؛ الأمة؛ الدولة؛ المجتمع؛ الشعب؛ العقد الاجتماعي؛ الحق المدني • السياق التاريخي للمفهوم.
- قيم الهوية: تأسيس وترسيخ قيم الهوية الوطنية: القرآن الكريم، السنة النبوية؛ السيرة؛ حياة الصحابة؛ التراث الإسلامي • بين مفهوم المواطنة ومفهوم الأمة والإنسانية • التعدد والتنوع سنة كونية وحقيقة شرعية وضرورة عمرانية وواقع تاريخي.
- المواطنة وتعزيز قيم الانتماء: دور الدين في بناء المشترك وتعزيز مبادئ المواطنة • مقومات التعايش السلمي بين المختلفين في العقيدة والجنس.
- المواطنة ودوائر الانتماء: بين الانتماء للوطن والولاء للعقيدة • إشكالية الانتماء بين الأمة والدولة • المواطنة في غير بلاد المسلمين • المواطنة والتحديات الراهنة: العولمة • التحالفات الدولية والقرارات الأممية،
- أسس المواطنة: العدل، الأمن، المساواة، تكافؤ الفرص، المشاركة الكاملة، استحقاق المنافع الطبيعية • بين المواطنة والاندماج • الحقوق الإنسانية: الدينية، المدنية، السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية....
- رؤية مستقبلية: الفكر المقاصدي وأحكام الشريعة: مقارنة لمواطنة فاعلة • أثر الانتماء الوطني في تحقيق الأمن والتنمية وبناء السلم المجتمعي • وسائل استدعاء البعد الغائب في دعم وترسيخ قيم الهوية والانتماء • نحو بناء ميثاق وطني جديد: مقارنة تراثية (حلف الفضول، وثيقة المدينة...).

• شروط الجائزة:

- ١- أن يكون البحث قد أُعدَّ خصيصاً للجائزة.
- ٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.
- ٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.
- ٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.
- ٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة (A4)، حوالي: (٦٠,٠٠٠) كلمة بخمط (Traditional Arabic) بحجم (16).
- ٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.
- ٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.
- ٨- تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.
- ٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.
- ١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.
- ١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته الذاتية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

* ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠ (+٩٧٤) - فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islamweb.net